التمهيد: الطنطاوي والأدب الإسلامي

ويحتوي على مبحثين:

المبحث الأول: البيئة الزمانية والمكانية لعلي الطنطاوي

ويشتمل على:

- الحياة الاجتماعية.
- الحياة السياسية.
- الحياة الثقافية والأدبية، وأثرها فيه.

المبحث الثاني: مفهوم الأدب الإسلامي.

obeikandl.com

obeikandl.com

الطنطاوي والأدب الإسلامي

أصبح من الواضح أن الدراسة الأدبية لا تستقيم إلا إذا دارت حول محاور الأدب المختلفة الشاملة: النص، والأديب، والبيئة؛ إذ لكل واحد منهم أثره الواضح في البناء الأدبي أيا كان جنسه[1].

فدراستنا عن «الاتجاه الإسلامي في أدب على الطنطاوي» تتطلب من الدارس التعرف على شخصية الأديب وبيئته التي نشأ فيها، وأثرها في أدبه، مما يدعونا إلى التعرف على أهم العوامل التي كان لها أثر في تكوين شخصية الأديب وتوجهاته؛ لأهميتها في فهم نتاجه الأدبي والحكم عليه؛ إذ إن الأدب صورة من شخصية الأديب، وإعلان عن هويته، وانعكاس لأخلاقه وطبائعه وثقافته.. وغير ذلك من العوامل التي يقع الإنسان تحت تأثيرها، والتي تنشأ من المحيط الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي نشأ فيه.

ويبدو أن الطنطاوي قد أدرك أهمية ذلك، فكشف لدارسه عن نفسه في كتابه «ذكريات علي الطنطاوي»، وزوده بالكثير، وأبان له عن

(١) هناك رؤى أخرى تقصر الدراسة الأدبية على النص وحده، سار عليها أصحاب «مذهب الفن للفن» على اختلاف شعبهم.

obeikandl.com

نـواح عديدة من حياته ونشأته في صـدق وصراحة؛ لكي يتمكن دارسه مـن أن ينطلق مـن ثوابت يستضـيء بها في تقويم ما يريـده من تراثه الضخم، دون أن يتخبط في أوهام التخمينات والظنون التي قد تصيب، وقد تخطئ! فتبتعد بالبحث عن موضوعيته.

وقـد ألمـح الطنطاوي إلى هذه الغاية فقـال: «... وما أدري لماذا ينتظر النـاس حتى يموت الرجل ليندبوه ويرثـوه، ويثنوا عليه، وينحلوه مزايـا ليسـت له، وفضائل مـا كان له حظ امتلاكهـا. وإن كان كاتبا أو شاعرا فسروا أدبه تفسيرا لم يكن يخطر على باله، ونسبوا إليه أفكارا ما خرجت قط من رأسه، بل ما دخلت إليه».

ولنتجنـب الوهم والخطأ في دراسة الطنطاوي؛ فقد أمدنا ـ رحمه الله ـ بفيض ضخـم من المعلومـات فـي «ذكرياته» التي بلغـت ثمانية أجـزاء، والتي تعد سجلا أدبيا وتاريخيـا أطلعنا من خلاله على الكثير مـن أحـداث عصره وعلاقتـه بها؛ فنقـل إلينا جل مـا دار في محيطه الواسـع بعدسته المصورة وبيانه العـذب، نقلا صادقا، مؤيدا ذلك بما نقلـه من رسائل وقـرارات وأجزاء مقالات بنصها. وفـي هذا المبحث سأحـاول ـ إن شاء الله تعالى ـ أن أقدم صورة للأديب بقلمه في محيطه الاجتماعي والسياسي والثقافي.

علي الطنطاوي

اسمه:

هو «علي بن مصطفى بن أحمد بن علي بن مصطفى الطنطاوي»[١].

لقبه:

«الطنطاوي» هذا اللقب نسبة إلى (طنطا) وهي إحدى المدن المصرية، حيث قدم جد أبيه لأمه منها إلى دمشق في سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٨م. وكان اسمه محمد مصطفى الطنطاوي، والذي لزم الجامع الأزهر خمس سنوات قرأ فيه على علمائه وأخذ عنهم، ثم كانت له مشاركات في التعليم والتأليف بدمشق، فترك كتبا صغيرة أكثرها في الفلك، والرياضيات...[٢].

كنيته:

كنى الطنطاوي عن نفسه في مرحلة من مراحل شبابه «بأبي

(١) ذكريات علي الطنطاوي. علي الطنطاوي ١/ ١٣٤.
(٢) السابق، ج١/ ١٣٤- ١٣٦.

obeikandl.com

الهيثـم» ووقـع بها بواكير مقالاته في مجلتي فتـى العرب، والناقد. وقد جمع بعض هذه المقالات وأودعها كتابه «الهيثميات»[١].

مولده:

ولد علي الطنطاوي في دمشق في حي العقيبة، وبها نشأ وترعرع.

وكان مولـده في فجـر يوم الجمعـة الثالث والعشريـن من جمادى الأولى في سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٨م[٢].

(١) السابق ٢/ ٢٢.

(٢) السابق ٤/ ٧٣.

obeikandl.com

المبحث الأول

البيئة الزمانية والمكانية لعلي الطنطاوي

مما لاشك فيه أن للبيئة أثرًا كبيرًا في تشكيل وجدان الأديب وتوجهاته، حتى قيل: «الأديب ابن بيئته»؛ لأن الإنسان كائن ذو حس وشعور، يتأثر بالمحيط الذي يعيش فيه وينفعل به، ويحاول التأثير فيه.

وقد ذكر الطنطاوي ذلك الأثر كثيرًا، ممثلاً له بقوله: «فإذا أنزل الله الأمطار وجمع الله لها الظروف، التي جعلها سبب الإنبات كان منها هذا النبات، وكان منه هذا الزهر البارع والثمر اليانع، أو كان منه الشوك الجارح والسم الناقع.

وكذلك كل ما تسمعه، لاسيما إن سمعته في الصغر، أنه بذرة شر إذا جاءها الظرف المناسب، وضعتك على طريق الجنة أو على سبيل النار، فانتبهوا يا أيها القراء لما تنظرون فيه من كتب ومجلات، وما تسمعونه من إذاعات ومحاضرات، وما تشاهدونه من مسلسلات ومسرحيات، ولا تظنوا أن أثر ذلك يذهب مع إكمال الكتاب، أو انتهاء المحاضرة، أو إسدال الستار على المسرحية، بل إن بعضه يبقى مابقيت الحياة»[1].

(١) ذكريات علي الطنطاوي. ١/ ٧٤. ط١. دار المنارة. جدة ١٩٨٩م.

ومن هنا يمكن أن ننظر إلى دور البيئة وأثرها في حياة الطنطاوي وأدبه.

(أ) الحياة الاجتماعية:

يرسم الطنطاوي من خلال ما كتبه صورة لمجتمعه، تصور ما كان عليه المجتمع وما صار إليه، فيذكر أن المجتمع الذي نشأ فيه كان مجتمعا نقيا طاهرا، يحافظ الناس فيه على القيم ويتمسكون بالدين، حتى كان أهل دمشق في مثل طهارة الأطفال، فلا المادية تسيطر عليهم، ولا الشبه تزعزع ما بهم. تمكنت العقيدة من قلوبهم، فكانت الأخوة تجمعهم، والعفاف زينتهم، والحياء يسودهم[١].

وقد كان من مظاهر هذه الحياة اجتماع الأسرة الكبيرة في بيت واحد، وأكلهم من قدر واحدة، لكل أسرة كبير يجلونه ويوقرونه، حتى إذا اجتمعوا عنده قعدوا متأدبين خاشعة أصواتهم، لا يخالفون له أمرا، ولا يجرؤون عليه بطلب، ولا يبدؤونه بحديث، مع تسامح ومحبة وارتباط قوي وتعاون على البر والتقوى[٢].

وقد انعكس هذا التسامح وهذا الرضا على حياة الناس، فكان الخير كثيرا، وكان كل شيء رخيصا، لم يعرف الناس الترف، ولم يحفلوا بكماليات الحياة[٣].

---

(١) صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص ١٦٧، ط٤ ـ دار المنارة ـ جدة ١٩٩٨م.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي، ١/ ١٤٤.

(٣) دمشق. علي الطنطاوي ص١٢٣، ط٢،دار المنارة ـ جدة ١٩٨٧م.

كان كل فـرد يؤدي دوره ويقوم بواجبه بلا تقصير ابتغاء وجه الله، فكان في كل حي جامع حافل بالعلماء، عامر بالدروس، يجتمع فيه الناس كل صـلاة... وكانت هذه الجوامع كمجالـس المديريات والمحافظات، والجامـع الأموي هو مجلس الأمة، فهو مجتمع أهل البلد، وهو المدرسة الكبـرى، وفيه تكون المذاكرة في كل أمر، ومنه يصدر كل قرار، وكانت الحلقات دائمة فيه لا تنقطع، حلقات الفقه، والحديث، والوعظ.

فـكان للدين أثره في القلوب، ولعلمائـه المخلصين هيمنة وتقدير في النفوس. ولم لا!؟ وقد كانوا مرجع الناس في أمور دينهم وأمور دنياهم[1].

وتبـدو لوعـة أديبنا وتحسره علـى ضياع ما كان يـراه في مجتمعه مـن مظاهر الصفـاء واليسر، والإخـاء وصيانة الأعراض، والتمسك بالأخـلاق والآداب، قبـل أن يدنس المجتمع بمظاهـر المدنية المادية، فيكثر لذلك من تكرار كلمة (كان، وكنا)، التي تشعر بالأسف على هذا الماضي الجميل، وشدة الحنين إليه.

يقول ـ رحمه الله: «... لقد كان الحي كأنه أسرة واحدة، فكان أهله شركاء في الفرش والآنيـة...، وكان الرجل يعد نساء الحي كلهن أهله، ويحفظهن ويغـار عليهن كغيرته على أهله، وكانـت كل امرأة تنظر إلى نسـاء الحي نظرها إلى أهلها، تقـدر كل كبيرة تقديرها لأمها، وتعطف على كل صغيرة عطفها على بنتها.

كانت تسليتنا قليلة، ولكنها نبيلة.

---

(١) دمشـق صـور مـن جمالها..وعبر مـن نضالها، علـي الطنطـاوي، ١٢٤، ط٣. دار المنارة. جدة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

وكانت حياتهم همومها يسيرة، ومشاغلها قليلة، فلا بطالة ولا عنوسة، فكانت البنت تتزوج في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، والشاب يتزوج في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، فلا يبلغ الثالثة والعشرين حتى يكون قد استقل بعمله أو صار شريكا لأبيه، وصار له مورد وصار له أولاد، ولم يعد كلا على أبيه، بل هو الذي يساعده...»[١].

«وكان الناس لا يهتمون بسياسة ولا رياسة، ولا يتصلون بالحكومة إلا إن عرض عارض أو ألمت ملمة»[٢].

فقد كانت الحياة الاجتماعية في مجملها كما يقول الطنطاوي: «ضيقة محدودة، ولكنها سعيدة مجدودة (أي محظوظة)»[٣].

ومن ثم فقد أشاد ـ رحمه الله ـ بهذه الحياة التي عاشت في وجدانه، والتي ظل حريصا على عودتها ولو من خلال ذكرياته وكتاباته، ولطالما حن إلى عهد الجدود الذين كان يراهم أبعد عن حضارة أوروبا، ولكنهم كانوا أرضى لله منا وأقرب إليه، وكانوا أقوم أخلاقا، وأطهر قلوبا، وأصفى سرائر، وأصدق معاملة، وكانوا أسعد منا في الحياة[٤].

ثم يورد الطنطاوي خبرا يوضح فيه بداية التحول لهذا المجتمع الذي كان مغلقا في أغلبه، لا يدري بما يدور حوله من أحداث، ولا يهتم

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ٣٤/١.

(٢) دمشق. علي الطنطاوي ص ١٢٦.

(٣) ذكريات علي الطنطاوي، ٣٤/١.

(٤) من حديث النفس. علي الطنطاوي ص٧١، ط ٣، دار المنارة، جدة ١٩٩٨م.

بمـا عليه العالم من تحركات، فقد ظل مجتمعا هادئا ساذجا قانعا بما له من الحياة، حتى صدمته المدنية الغربية بمظاهرها المادية، فكانت أشبه ما يكون له بالسحر الذي أفقده اتزانه.

يقـول الطنطـاوي: «وأنـا أذكـر أن أول سيـارة وصلـت إلينا سنة ١٩١٦م، وخـرج النـاس ينظرون إليها، فلما رأوهـا لا يسحبها حصان، قال قائل من العوام: إن الجن تسيرها، فتدافع ضعاف القلوب هاربين، وهربنا نحن الصغار معهم!. أما الطيارة فقد جاءتنا قبل سنة ١٩١٥م، سمعـت بذلك ولم أره؛ لأنـي كنت صغيرا، وكانت قصـة عجبا، تحدث الناس بها طويلا مع أن الطيران إنما ابتدأ سنة ١٩٠٣م»[١].

تلـك الحياة الراضية الهانئة التي تكلـم عنها الطنطاوي، سرعان مـا تحولت إلى تعاسة وشقاء مـع بداية الغزو الاستعماري الأوروبي؛ إذ صاحـب الغزو العسكري لتلك الـدول غزو أعمق أثرا وأكبر خطرا، وهو الغـزو الفكري الـذي أفرز انتشـار ضلالات وشبـه، وانحرافات فكرية وسلوكية وأخلاقيـة أرادها المستعمر، واتخذهـا سلاحا موجها، سعى لتفعيـل دوره في المجتمع المسلم بشتى الطرق، بهدف تطويعه وتحويله لمستعمرة يستغل مواردها ويضمن بقاءه فيها.

وهذا التحول السيئ في مناحي الحياة، والذي بدت مظاهره سريعاً في المجتمع من تحلل وانحراف.. عدد الطنطاوي في كثير من مقالاته بعض مظاهره: من أدب مكشوف، وصحف مأجورة، وقوانين موضوعة،

(١) ذكريات علي الطنطاوي،١/٣٥.

وخـدع مصنوعة بإحكام،... مبينـا أن هذا الكلام كله كان نتيجة للغزو الاستعمـاري، الذي قال عنه بعد أن عدد كثيـرا من مظاهره: «... هذا كلـه ثمـر الغرسة الخبيثة التـي غرسها فينا المستعمـر، وإنه لن يكون الجـلاء حقـا، حتى تجلو قوانيـن المستعمر عن محاكمنـا، وشبهه عن رؤوسنا، وعاداته عن بيوتنا، كما جلت جنوده عن أرضنا»[1].

ومـن ذلك نلمـح أن الحياة الاجتماعية التي عاش فيها الطنطاوي قد تطورت وتغيرت سريعا من السكـون والقناعة إلى الصراع والطمع، ومن العفة والغيرة إلى التكشف والتهاون.

لذلـك كان الطنطاوي ممـن يبغض هذه الحيـاة الجديدة المسماة (بالمدنية)، ليس عن بغض لعلومها ومنجزاتها، وإنما لما جلبته معها من تسلـط مـزر، وما تخفيه تحت ثوبها البراق من سـم ناقع يبثه أتباعها في عـروق المجتمع وشرايينه، من فكر خبيث، وتقاليد قبيحة، لو لم تجد من يداويها لغيّرت وجه المجتمع، وبدلت جلدته الإسلامية والعربية كلية.

ومـن الواضح أن هذه الحيـاة الاجتماعيـة بمشاهدها وملامحها قـد انطبعت في نفس الطنطـاوي، وتركت أثرها في فكـره، وانفعل بها وجدانـه، ونمـا معها اتجاهـه، فبدت ملامحهـا في أدبه، وبـدا موقفه الثائر من تشويهها وتحويلها عما كانت عليه من صفاء وطهارة، وقناعة وإيمـان، وبدا جهده الساعي نحو بنائها بناء إسلاميا معاصرا، متصلا بأصوله ومنطلقا من ثوابته.

---

(١) صور وخواطر، علي الطنطاوي ١/ ٣٥.

(ب) الحياة السياسية:

من المهم التعرف على الحياة السياسية، وأحداثها في محيط الطنطاوي، وموقفه منها، لما لها من انعكاس عليه وعلى أدبه.

ولقد صور الطنطاوي النظام السياسي الذي عاش في ظله صورة كلية مجملة، فقال: «ذلك أننا شهدنا في سنتين اثنتين مولد انقلابين، وموت حكومتين، أدركنا عهد الترك ورأينا ذهاب الترك، وعشنا في حكم (فيصل)[١] وأبصرنا انهيار حكومة فيصل، فكانوا كلما جدت حكومة ونحن في الصف الخامس أعادونا إلى الصف الرابع، فلم نستقر في الصف الخامس إلا سنة ١٩٢١م، على عهد الفرنسيين، وقد كنا فيه سنة ١٩١٨م على أيام العثمانيين»[٢]. وفي هذا دلالة على ما كانت عليه الحياة السياسية حينذاك من اضطراب وقلق، وما كان عليه النظام السياسي من ضعف وهزال.

وحياة الطنطاوي نظرا لذلك - كما وصفها - كانت حياة صاخبة مليئة بالأحداث والمتغيرات والثورات والانقلابات، التي كان من شأنها أن أحدثت تغييرا عميقا في فكر المجتمع وقيمه بوجه عام؛ حيث أدرك الطنطاوي عهد الترك، وعهد الشريف، وعهد الفرنسيين، وعهد الاستقلال، وعهد الوحدة، ولكل عهد من تلك العهود مآس وأهوال

---

(١) فيصل الأول بن علي الحسني الهاشمي، أبو غازي ١٣٠٠ - ١٣٥٢هـ، ملك العراق. من أشهر ساسة العرب في العصر الحديث (معجم الأعلام. بسام عبد الوهاب الجابي ص٥٩٨).

(٢) دمشق... ص١٤٠.

obeikandl.com

تبدلت فيها الأحوال، وتغيّر المجتمع في هذه السنين الخمسين أضعاف ما تبدل في القرون الخمسة الماضية»[١].

إذ صاحب كل عهد مـن تلك العهود أفكار وأخطار، ودعوات فكرية ومذهبية أحدثـت تيارات مختلفة تصارعت فيمـا بينها. هذه التيارات كان منهـا ما يهدف إلى إيقاظ طوائـف الشعب، وبث الحركة والنشاط فيها، ومحاربة مظاهر الفساد، كل بمقدوره، وفي محيطه، فتولدت عن ذلك صور خالدة من البطولات والزعامات السورية، كان من بينها علي الطنطاوي ـ رحمه الله.

علـى أن أبقـى هـذه الصراعات أثـرا وأعمقها خطـرا، الاستعمار الفرنسي ومـا جلبه من بلايا مادية وفكرية، والذي بدأ خطواته اللعينة حين «رغب الجانب العربي في عقد معاهدة مع إنجلترا انتقاما لقوميته التـي عبث بهـا العثمانيون... وقد انتـاب العثمانيين حمـى الطورانية، فسـاروا في هـذا الشوط إلى نهايته. نعم ثار العـرب ثورة مكتومة أمام هـذا التتريـك، ولم يقبلـوا أبـدا أن ينصاعوا لـه، فكانـت الجمعيات العربيـة، والأحزاب والخطب والدعوة إلى الثورة خير دليل على كراهية العـرب لسياسـة التتريك هذه. وقـد قابلت تركيا هـذا الاتجاه العربي القومي المضاد بشيء غير قليل من القسوة والعنف.

فـكان لابد للعرب من حل، وهم يبحثـون عن الاستقلال عن الدولة العثمانية، بعدما زاد (الاتحاديون) في إيذائهم وفرض التركية عليهم،

(١) صور وخواطر، ص٢٦٠.

ومحاربة العربية. وقد آلم العرب - خاصة - تلك السياسة العتيقة التي اتبعها الاتحاديون ضدهم...، آلمهم امتهان قوميتهم وآدميتهم، حين عبث بهم جميعا أحمد جمال باشا، فأخذ ينفي العرب رجالا ونساء، ويبعث بهم خارج بلادهم... وكان للدماء الزكية البريئة التي سفكها هذا الرجل رنة من الحزن والأسى أصابت كل عربي، كما كان لجميع الشخصيات البارزة التي نعدها بحق طلائع النهضة العربية أثرها - كذلك - في الرغبة في إعلان الثورة على الأتراك في كل مكان.

تراءى للعرب إذن وجوب الثورة على العثمانيين، فكان لابد لثورتهم هذه من زعيم يقودها ويدير أمرها، وقد وجدوا هذه الزعامة في البيت الهاشمي في الحجاز، وكان لابد من السلاح وقد وجد العرب هذه المساعدات من الحلفاء، لكنهم رغبوا ألا يكون ثمنها على حساب الوطن والاستقلال، ومن ثم عولوا على عقد معاهدة يضمنون بها وصول المدد والعون لإنجاز ثورتهم، ويضمنون عن طريقها الانتقام والتشفي من ظالميهم، وقد وجدوا استجابة من الإنجليز خاصة، استجابة ظاهرها رحمة وباطنها شقاء وعذاب، فكان حمل العرب السلاح ضد الترك ثورة لقوميتهم المهيضة.

فقامت على ذلك معاهدة الشريف حسين/مكماهون، مع الحلفاء إنجلترا وفرنسا، وأعلنت الثورة العربية في ٥ يونيه سنة ١٩١٦م، وكانت تلك الثورة التي قام بها الشريف حسين انتفاضة عربية خالصة تفانى القائمون بها في تأدية واجبهم على خير وجه، فاستطاعوا طرد الأتراك من شبه الجزيرة العربية، وساهموا إلى حد كبير في تخليص سوريا

مـن العثمانيين، حيث اشترك معهم الحلفاء من الإنجليز والفرنسيين، وانفرد الإنجليز بطرد العثمانيين من العراق...

ومن أبرز نتائج هذه الثورة العربية، أنها وحدت بين العرب بدوهم وحضرهم، فقد تناسى الجميع أحقادهم واندفعوا مع الشريف وأبنائه لاستـرداد حريتهـم المسلوبة، كما كانت خسـارة الترك على يد العرب أعظـم مما كان يتصـور؛ إذ بلغ مجمـوع القوات التركيـة التي شملتها الثـورة العربية بالقتل والأسر والعزل، حوالـي ٣٥٠٠٠، وكان ذلك إبان احتـلال العقبة، وقد زاد هذا العدد كثيرا بعد ذلك. كما لقي العرب في الشـام ـ خاصة من جـراء الثورة العربية الكثير مـن العنت والإرهاق، حتى ذهب ضحيتها في سوريا ولبنان أكثر من ثلاثمائة ألف نسمة! هذا بالإضافة إلى مئات المشردين! ومن قتلوا على يد السفاح التركي أحمد جمال باشا...

وقد استقبل عرب سوريا جيش الثورة العربية وجيش اللنبي القائد الإنجليـزي ـ خيـر استقبـال، مؤملين الخيـر على يد الإنجليـز، الذين وعدوهم بالاستقلال والوحدة، ولم يدروا أن إنجلترا وفرنسا قد تآمرتا علـى حريتهـم ووحدتهم فـي اتفاقية (سايكـس/ بيكو) فـي مايو سنة ١٩١٦م في أثناء مفاوضتها مـع العرب، ولقد قامت هذه الاتفاقية على تحقيـق أطماع فرنسا القديمـة في سوريا ولبنان، وأطمـاع إنجلترا في فلسطين والعراق.

لذلـك لم يلبث «اللنبـي» أن عمل على تنفيذ معاهـدة (سـايكس/ بيكـو) من الناحيـة العملية، فقسم سورية إلـى مناطق احتـلال ثلاث،

جعل القسم الشرقي من سورية ـ سورية الداخلية منطقة احتلال الجيوش العربية، وأما المنطقة الغربية ـ الساحلية ـ فقصره على الفرنسيين، بينما احتل هو بجيوشه الإنجليزية فلسطين، فكان هذا التقسيم العسكري خير دليل على نية الحلفاء المبيتة ضد العرب[١].

وهكذا لم تنج سوريا من أنياب الذئب العثماني (الاتحاديين)، حتى وقعت في براثن الثعلب الفرنسي الذي غرها ومناها بالاستقلال، فلم تهنأ به حتى دفنته لها في ميسلون سنة ١٩٢٠م.

وظل الصراع مستمرة حلقاته بين سوريا وفرنسا، ومتلونة أساليبه، حتى تم لها الجلاء سنة ١٩٤٦م.

لكن ما خلفه الاستعمار كان أفظع وأخطر، ويحتاج إلى أسلحة أقوى وأمنع.

يقول الطنطاوي: «لقد ظهرت فينا أفكار غريبة عنا، ما كنا نعرفها ونحن صغار، أفكار جاء بها الاستعمار وصنائع الاستعمار من الذين تربوا في تلك الديار»[٢].

ومن هنا ظهر أثر هذه التقلبات المستمرة، والصراعات الضارية على نفس الطنطاوي، وانعكست على أدبه بالرفض والغضب لما يكره تارة، وبالتأييد والرضا لما يحب تارة أخرى.

---

(١) الأحداث العربية في تاريخها الحديث. د/ طه شرف صـ١٤٦ وما بعدها، ط شركة توزيع الجمهورية، موسوعة التاريخ الإسلامي. د/ أحمد شلبي ٥/ ٥١٧ـ ٥١٩، ط٣ ـ مكتبة النهضة المصرية.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي ٦/٩.

(ج) الحياة الثقافية:

تبدو صورة الحياة الثقافية من خلال لونين من النشاط هما:

النشاط التعليمي، والنشاط الأدبي.

أما بالنسبة للجانب التعليمي عند منشأ الطنطاوي، فقد كان يسير في دمشق على طريقتين:

١- طريقة المشايخ الملتزمة بالأسلوب الأزهري القديم.

٢- طريقة المدارس النظامية.

أما طريقة المشايخ، فقد كان لها دور كبير في تثقيف العامة وطلبة العلم، وكانت لها حلقات ومجالس دائمة لا تنقطع، حلقات الفقه، والحديث، والوعظ..

وكان هؤلاء العلماء مرجع الناس في أمور دينهم وأمور دنياهم، يسألونهم ويقبلون منهم ويصدرون عن رأيهم، كانت كلمتهم مسموعة، وكان رأيهم نافذا»[١].

وهؤلاء - برغم جهدهم هذا في خدمة العلم وتثقيف الناس- اتصفوا بالجمود، فكانوا لا يعنون بالتجديد ولا بالاجتهاد واستنباط الأحكام، فهم عاكفون على كتبهم في حلقاتهم يكررون- غالبا - قراءة الكتب التي قرؤوها على مشايخهم، فجاؤوا يعيدون إقراءها تلامذتهم، فما كانوا يزيدون عليها، أو يزنون ما جَدَّ في عصرهم بميزانها[٢].

---

(١) دمشق.. ص١٣٤.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي، ٢/ ٣٥، ٣٦.

وأما المدارس النظامية في الشام، فقد كانت أصنافا ثلاثة:

المدارس الأهلية، والمدارس الأميرية الحكومية، والمدارس النصرانية.

أما المدارس النصرانية فقد فتحت لأهلها، ولم يكن لأبناء المسلمين مكان فيها، ولكنها امتلأت بعد ذلك على مر السنين بأبناء المسلمين بحجة تعلم اللغة الأجنبية.

وهذه الحجة الواهية التي لا تثبت للنظر والتمحيص، قد جرت على المسلمين شرا كبيرا.

أما المدارس الأهلية فكانت هي الأقوم سبيلا والأكثر عددا..، وكانت تحرص على تلقين الطلاب العلوم الإسلامية، وتعويدهم على أداء الواجبات، والبعد عن المحرمات، ولكنها كانت تسلك في التربية وفي أساليب التدريس أسوأ السبل[1].

فكانت هناك طريقتان في التعليم تختلف كل واحدة منهما عن الأخرى في المناهج والأسلوب، ولكل منهما مزايا وعيوب، وقد كان علي الطنطاوي من أول من جمع بين الطريقتين في تعليمه، فنال مزايا الطريقتين!.

لذلك يقول: «مشيت في دراستي من أول يوم في الطريقتين معا... طريقة المشايخ، وهي على الأسلوب الأزهري القديم، وطريقة المدارس

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ٥/ ٢٥٦.

النظاميــة التي سلكتها من أدنى الابتدائيــة إلى أعلى الجامعة، وأخذت من الاثنتين خير ما وجدته فيهما، ولكن الذي كان أجدى علي وأنفع لي منهما، أو هو في النفع مثلهما هو المطالعة»[١].

أمــا الجانب الأدبي في دمشق: فقد كان مصابا بالركود والخمول، فهو أشبه ما يكون بالمعدوم. والحياة الأدبية في الشام كانت أحوج شيء إلى المداواة والعلاج؛ إذ كان في الشام حياة أدبية لها وجود، ولها آثار يستطيــع الناقد أن يصفهــا وأن يتحدث عنها، وإن كان الشك في وجود هــذه الحياة موجودا، حيث لا يستطيع الناقد أن يجزم بوجودها؛ لأنه لا يــرى علامة من علامات الحياة في أدباء الشام وأدبها، كما لا يستطيع أن يجزم بنفيها؛ لأن في دمشق أدباء كبارا معروفين؛ ولأن دمشق ـ كما يعلم الناس جميعا ـ عاصمة من عواصم البيان العربي»[٢].

ويــرى الطنطاوي أن أهم أسباب الركــود الأدبي في دمشق ضعف همــة الأدبــاء، بالإضافة إلى أسبــاب أخرى منها: عــدم وجود مجلات أدبيــة سوى مجلة صغيــرة اسمها (الطليعة) ومع ذلــك كان منحاها لا يرضــاه كثيــر من الناس مع عــدم عناية الجرائد اليوميــة بالأدب، فلا تجد لــه صفحات مخصصــة ولا دائمة، مع قلة وجــود الناشرين؛ لقلة إقبال القراء على شراء الكتب والمؤلفات، بالإضافة إلى عجز كثير من المدرسين عــن أداء مهمة التثقيف الأدبي المطلوب، الذي يساعد على

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ١/ ١٦٢.

(٢) فكر ومباحث ـ علي الطنطاوي، ص١٦٥، ط٣، دار المنارة ـ جدة ١٩٩٠م.

obeikandl.com

اكتشاف المواهب الأدبية، وشحذ هممها نحو التأليف والإبداع[١].

وأضاف الطنطاوي إلى تلك الأسباب أسبابا أخرى لا تقل أهمية عنها فقال: «وإن من أظهر الأسباب في ركود الأدب في الشام في القرن الماضي وانقطاع سبيل التأليف: هو فقدان التشجيع، وذلك الاحتكار العلمي الذي قتل كثيرا من النفوس المستعدة للعلم، وخنق كثيرا من العبقريات المتهيئة للظهور. فقد كان العلم في الشام مقصورا يومئذ على بيوت معروفة لا يتعداها، ولا يجوز أن يتعداها...»[٢].

ثم أيد هذا القول بأمثلة مما سمعه ورآه.

ويبدو مما سبق أن الطنطاوي كان يريد نشاطا أدبيا واسع النطاق ومتعدد الألوان والأجناس، فالآثار الأدبية آنذاك تنحصر - كما قال - في فئتين من فنون الأدب هما: القصة التاريخية، والدراسة التحليلية. أما سائر فنون الأدب كالقصة التمثيلية، والأقصوصة، والصور الوصفية، والمذاكرات الأدبية، والتأملات الفلسفية والشعرية، والدواوين القيمة، والخطب البليغة، وغيرها من فنون الأدب لا يكاد يوجد لأدباء دمشق فيها أثر يذكر..[٣].

على أن هذه الصورة للحياة الأدبية في دمشق لم تدم فتامتها تلك، فقد كانت هناك أعمال أدبية ووثبات شعرية وفكرية نمت وترعرعت في ظل النهضة الحديثة.

---

(١) فكر ومباحث - ص١٦٦ وما بعدها.

(٢) السابق ١٢٨.

(٣) فكر ومباحث - ص١٦٦.

فـإذا كان عهـد الأتـراك الاتحاديـين عهدا مظلما؛ حيـث حاولوا جاهديـن تتريك اللغة العربيـة والقضاء على كل نهضـة، فإنه لما زال حكمهم وقامت الثورة سنة ١٩١٦م انقشعت غمامة التخلف والركود، كما يوضحها قوله: «... ملأ الأفق نور الفجر، ونشرت رسائل وكتب، وألقيت خطـب ومحاضرات، وكان النـادي العربي... وعرفنـا لأول مرة أن في الدنيا أدبا عربيا، وشعرا عربيا، وخطباء يخطبون في غير المساجد... ومـرت أيام ودفن الاستقـلال الوليد في وادي ميسلـون، ولكن النهضة بقيـت عائشة، ولبثـت تسير قدما حتى أثمرت «مجلـة الرابطة الأدبية» التي صدر العدد الأول منها في أيلول١٩٢١م»[١].

كمـا قامت علـى إثر ذلك ـ أيضًـا ـ نهضة المشايـخ سنة ١٣٤٣هـ، التي كانت تهدف إلى إخراج الأولاد من المدارس الحكومية، ولا يتحقق ذلـك إلا بفتـح مدارس تغني عنهـا، فلذلك «أنشئـت الجمعية الغراء»، وقـد كانت أول الأمر بإشراف الشيخين اللذين قاما بهذه النهضة معا، وهما: الشيخ علي الدقر، والشيخ هاشم الخطيب[٢].

فأنشـأ عددًا مـن المدارس الأهلية، وقامـا بوضع المناهج وجلب المدرسيـن لها، وأثمرت هـذه المدارس خيرًا كثيـرًا، وخرّجت علماء، وأحيا الله بها أرض حوران والبلقاء والأردن.

---

(١) من حديث النفس ـ علي الطنطاوي ص١٣٧، ط٣، دار المنارة ـ جدة ١٩٩٨م.

(٢) علـي الدقر: عالم دمشقي بلغ منزلة عظيمة فـي قلوب الناس والعلماء (رجال من التاريخ ـ علي الطنطـاوي ١/ ١٤٠)، هاشم بن أحمد عبد الواحد بـن هاشم الأسدي، أبو طاهر الحلبي الخطيب ولي خطابة حلب (معجم الأعلام ص٩٠٨).

وإن كان بهـا من المثالب ما جعلها قاصـرة على كثير من المظهر وراء قليل من الجوهر، معنية بأمور من فروع الفروع، لا بتدعيم الأسس وتثبيت الأصول، كما أمر الشرع وصنع الرسول ﷺ[١].

ولا ينسى في هذا الصـدد دور «المجمع العلمي» وأثره في النهضة الثقافيـة، فهـو أقدم المجامـع العربيـة، أسسه الأستـاذ (محمد كرد علـي)[٢] سنة ١٩٢٠م، وبدل اسمه أيام الوحدة مع مصر فسمي مجمع اللغة العربية[٣].

وقـد كان هـذا المجمع مصـدر إشعاع ثقافي ينهل منـه رواده من الخاصـة وطلبة العلـم...، وكان منبـره مصدرا من مصـادر الثقافة، ومدرسة من مدارس العلم.

وكان مـن أثـر الحركـة العلمية والثقافيـة لهذا المجمـع - بجانب الأبحـاث والمناقشـات والخطب والمحاضـرات - أن ساهـم فريق من أعضائـه في تعريب المصطلحـات الطبية الأجنبيـة، وبذلك يكون قد أسـدى المجمع العلمي إلى العربية خيرا كثيرا لم يستطع أحد إلى الآن على كثرة المؤسسات وعظم النفقات أن يقوم بمثله[٤].

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ١/١٨٥ وما بعدها.

(٢) محمـد كـرد علي: رئيس المجمع العلمـي العربي بدمشق، ومؤسسه، وصاحـب مجلة «المقتبس» والمؤلفات الكثيرة، وأحد كبار الكتاب (معجم الأعلام ص٧٣١).

(٣) ذكريات علي الطنطاوي ٣/ ١٦.

(٤) ذكريات علي الطنطاوي ٢/٦٣، ٦٤.

ويؤخذ من هذا أنه كانت هناك حركة أدبية ونشاط ثقافي في سوريا، لكنه كان دون المستوى المنشود إذا قورن بالنشاط الأدبي والثقافي في مصر آنذاك، مما جعل الطنطاوي يصفه بالبطء والركود، وإن كان كثير من أدباء الشام وناشريها قد أسهموا مساهمة فاعلة في إذكاء الحركة الثقافية والأدبية في مصر وتنشيطها.

وما عرف منهم إلا قليل ممن عاشوا فيها، أو كتبوا في صحفها أمثال محمد كرد علي، والمغربي، (ورفيق العظم)[١]. (ورشيد رضا)[٢] و(شكيب أرسلان)[٣]، (ومحب الدين الخطيب)[٤] ثم خير الدين الزركلي، و(عادل زعيتر)[٥]، و(إسعاف النشاشيبي)[٦]، وصاحب جريدة الشورى (محمد علي الطاهر)[٧].

---

(١) رفيق بك بن محمود بن خليل العظم، عالم باحث، من رجال النهضة السورية ١٢٨٤-١٣٤٣هـ- ١٨٦٧-١٩٢٥م (معجم الأعلام ٢٧٢).

(٢) محمد رشيد بن علي رضا، بغدادي الأصل، حسيني النسب، صاحب مجلة المنار، وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، من الكتاب العلماء، ١٢٨٢- ١٣٥٤هـ ١٨٦٥- ١٩٣٥م (معجم الأعلام ٧٠٧).

(٣) شكيب بن محمود بن يونس أرسلان من سلالة التنوخيين، ملوك الحيرة، عالم بالأدب والسياسة، نعت بأمير البيان،١٢٨٦ - ١٣٦٦هـ - ١٨٦٩ - ١٩٤٦م (معجم الأعلام ٣٣٧).

(٤) محب الدين بن أبي الفتح محمد بن عبد القادر بن صالح الخطيب، من كبار الكتاب الإسلاميين ١٣٠٣- ١٣٨٩هـ - ١٨٨٦ - ١٩٦٩م (معجم الأعلام٦٥٢) وهو خال الشيخ علي الطنطاوي.

(٥) عادل بن عمر بن حسن زعيتر، حقوقي من أكابر المترجمين عن الفرنسية ١٣١٢-١٣٧٧هـ- ١٨٩٥ - ١٩٥٧م (معجم الأعلام ٣٧٥).

(٦) محمد إسعاف النشاشيبي، أبو الفضل، أديب باحث من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٠٢ - ١٣٦٧هـ - ١٨٨٥ - ١٩٤٨م (معجم الأعلام ٦٧٨).

(٧) محمد بن علي الطاهر، صحفي فلسطيني ١٣١٢ - ١٣٩٤هـ - ١٨٩٤ - ١٩٧٤م (معجم الأعلام ٧٦٤).

كما كانت أكثر الصحف يملكها ناس من نصارى الشام، كالأهرام، والمقطم، والمقتطف، والهلال، حتى أنشأ الشيخ (علي يوسف)[١] جريدة «المؤيد» (ومصطفى كامل)[٢] جريدة «اللواء».

وكانت أكثر دور النشر لشاميين تمصروا، كدار الهلال، ودار الخانجي، والبابي الحلبي، اللتين نشرتا من المخطوطات ما يملأ مكتبة كاملة، ثم الشيخ (منير الدمشقي)[٣] وحسام الدين القدسي، وقبلهما دار المنار، والمطبعة السلفية لمحب الدين الخطيب[٤]...

ولعل ما أغرى هؤلاء وغيرهم بالنزوح إلى مصر؛ دورها في تبني المواهب، «فهي كالميدان المنور من أحب أن يرى مكانه ذهب إليها أو نشر أثره فيها»[٥].

أما بالنسبة للإبداع الشعري فقد نبغ في دمشق في العصر الحديث كوكبة من الشعراء المجيدين كان لهم أثر في دفع الشعب السوري نحو التحرر والجهاد، ورفع معنوياته وبث الحماسة في قلبه بإحياء تراثه الإسلامي، وتذكيره بتاريخه وبطولاته وسير عظائمه.

---

(١) علي بن أحمد بن يوسف، كاتب من أكابر رجال الصحافة في الديار المصرية صاحب «المؤيد» ١٢٨٠ - ١٣٣١هـ - ١٨٦٣ - ١٩١٣م (معجم الأعلام ٨٦٩).

(٢) مصطفى كامل (باشا) بن علي محمد، نابغة مصر في عصره، وأحد مؤسسي النهضة الوطنية ١٢٩١ - ١٣٦٢هـ - ١٨٧٤ - ١٩٠٨م (معجم الأعلام ٨٤٣).

(٣) منير أبو محمد بن عبده آغا النقلي الدمشقي، صاحب دار الطباعة المنيرية، ت ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م (معجم الأعلام ٨٦٩).

(٤) ذكريات علي الطنطاوي ٣/ ٢٩.

(٥) ذكريات علي الطنطاوي ٣/ ٢٩، ٣٠.

ومـن هذا يؤكد أحد الباحثين[١] على دور هؤلاء الشعراء، وأثرهم في مجتمعهم السـوري آنذاك، وتلبيتهم لحاجته انطلاقـا من اتجاه إسلامي شامل وأصيل بقوله: «... وهكذا كان الاتجاه الإسلامي في سورية بملامحه الأدبية ومناهجه الثقافية ومواكبته لقضايا التحرر في البلاد رائدا للكثير من الشعراء في سورية...حيث لبّى كثير من الشعراء المحدثين في سوريا نـداء الإسلام، فعكسـوا منه لوحات قـد تنوعت تنوع الحيـاة، فاستلهموا السيـرة النبوية والتاريخ الإسلامي، متناولين وقائع السيرة وما ضمت من شمائـل النبي ﷺ والتجـارب الإيمانية التي رادها، ومن ثـم مستعرضين بطولات عظماء الإسلام وومضات من الحضارة الإسلامية.

ومـع ذلك لم يغفلـوا قضايا العصـر، فلقد كانـت لقضايا الحياة المعاصـرة في ضوء الإسـلام النصيب الأوفى من التنـاول الفني عند شعرائنا، فتغنوا بمعاني الوحدة في آفاقها الإسلامية داعين إلى ترجمة هذه الآفاق والمعاني إلى واقع ناهض حي[٢].

وبعد: فهذه لمحات من الحياة الثقافية والأدبية في دمشق، عكست غلبـة التوجه الإسلامي على هذا النشـاط المتمثل في نهضة المشايخ، ومحاضرات المجمع العلمي، ودروس المسجد الأموي، ودروس المشايخ والعلمـاء، وبعض الصحـف والمجـلات، إلـى جانب بعض المؤلفات والدواوين القليلة، والتي عملت بدورها على تنمية اتجاه علي الطنطاوي الإسلامي وثرائه وعمقه.

---

(١) محمد عادل الهاشمي في كتابه (أثر الإسلام في الشعر الحديث في سوريا).

(٢) أثـر الإسلام في الشعر الحديث في سوريا. محمـد عادل الهاشمي ص٤٣،٤٤، ط١ دار المنار، الأردن ١٩٨٦م.

الطنطاوي ومجتمعه الصغير

الطنطاوي في بيته:

نشأ الطنطاوي في جو علمي من أسرة علمية، فوالده الشيخ مصطفى الطنطاوي كان في الطبقة الأولى من فقهاء الشام، وكان يغشى بيته العلماء فيتحدثون ويتدارسون، فقاده هذا الجو، وما لمسه فيه من إجلال وتقدير لأبيه من تلامذته وزملائه إلى حب العلم ومطالعة الكتب التي كانت متوافرة في مكتبة أبيه الذي كان مولعا باقتنائها[1].

الطنطاوي في دراسته وتلقيه:

كان أول تلقي الطنطاوي للدراسة النظامية بدخول المدرسة الابتدائية الأولى على العهد العثماني، فكان طالبا في المدرسة التجارية التي كان أبوه مديرا لها إلى سنة ١٩١٨م... ثم كانت الثانوية بمكتب عنبر «والذي نال منه البكالوريا (الثانوية العامة) سنة ١٩٢٨م..، وبعد ذلك جاء إلى مصر ودخل دار العلوم العليا، ولكنه لم يتم السنة الأولى... حتى عاد إلى دمشق في السنة اللاحقة ١٩٢٩م،

(١) ذكريات علي الطنطاوي ١/٥، ١٦٠/٢٧٠، صور وخواطر، ص١٤٦.

فدرس الحقوق في جامعتها حتى نال الليسانس سنة ١٩٣٣م[١]... ومع هذه الدراسة النظامية التي أتاحت له الاطلاع على العلوم الحديثة، كان يقرأ على المشايخ ويتلقى منهم على الطريقة الأزهرية القديمة، حتى إنه عدّ من كبار العلماء الذين أخذ عنهم. في كتابه «تعريف عام بدين الإسلام» ما يزيد عن أربعين عالما في شتى المعارف العربية والشرعية، ولو أسعفته الذاكرة لعد منهم ما يزيد على المائة...[٢].

هوايته:

كانت هواية الطنطاوي الأولى المطالعة التي أكسبته ثقافة واسعة، حيث كان يقضي معظم أوقاته بين الكتب في القراءة والاطلاع حتى قال عن ذلك: «فأنا اليوم وأنا بالأمس كما كنت في الصغر أمضي يومي أكثره في الدار أقرأ، وربما مر علي يوم أقرأ فيه ثلاثمائة صفحة»[٣].

من تأثر بهم الطنطاوي:

لقد ترددت في مقالات الطنطاوي أسماء كثيرة لرجال. تركوا فيه أثرا. عرفانا بفضلهم، وتقديرا لجهدهم، من أبرزهم ثلاثة كانوا من مدرسيه في مكتب عنبر، وهم: «(الشيخ عبدالرحمن سلام)[٤]،

(١) علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء. مجاهد ديرانية ص ١١،١٢ط١ دار القلم، دمشق ٢٠٠١م.
(٢) تعريف عام بدين الإسلام. علي الطنطاوي هامش ص٥، ٦ ط٣ دار البشير. طنطا.
(٣) ذكريات علي الطنطاوي ١/ ١٦٢.
(٤) عبد الرحمن سلام بن جرجس الصفدي، أديب عالم باللغة، شاعر، من أعضاء المجمع العلمي بدمشق ١٢٨٨ - ١٣٦٠هـ ١٨٧١ - ١٩٤١م. (معجم الأعلام ٣٩٥، ٣٩٦.)

و(الشيخ عبدالقادر المبارك)[١] و(الأستاذ سليم الجندي)[٢][٣].

وكان من أبرز الذين اتصل بهم في الحياة العملية، ووجدنا لهم فيه أثرا بينا خاله الأستاذ محب الدين الخطيب «من خلال عمله معه في مجلتي الفتح، والزهراء»، و(الأستاذ أحمد حسن الزيات)[٤] من خلال عمله معه في مجلة الرسالة[٥]، و(الأستاذ معروف الأرناؤوط)[٦] الذي عمل معه في جريدة فتى العرب[٧]، وكذا (الأستاذ عارف النكدي)[٨] الذي عمل في جريدة الأيام[٩]، والشيخ صلاح الدين الزعيم الذي كان يعمل مراقبا للطلاب في الكلية الشرعية في بيروت التي كان الطنطاوي مدرسا بها سنة ١٩٣٧م[١٠].

---

(١) عبد القادر بن محمد بن محمد المبارك الجزائري الدمشقي، أديب، غزير العلم بمفردات اللغة، جزائري الأصل، مولده ووفاته في دمشق ١٣٠٤ ـ ١٣٦٤هـ ـ ١٨٨٧ـ ١٩٤٥م (معجم الأعلام ٤٢٧).

(٢) محمد سليم بن محمد تقي الدين ابن مفتي المعرة، محمد سليم الجندي العباسي، شاعر، مدرس، عالم بالأدب، له اشتغال بالتاريخ، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٢٩٨ ـ ١٣٧٥هـ ١٨٨١ ـ ١٩٥٥م (معجم الأعلام ٧٤١).

(٣) ذكريات علي الطنطاوي ١/ ١٥٤، من حديث النفس، علي الطنطاوي ١٣٨.

(٤) أحمد حسن الزيات، صاحب الرسالة، من كبار الكتاب ١٣٠٢ ـ ١٣٨٨هـ ـ ١٨٨٥ ـ ١٩٦٨م.(معجم الأعلام ٣٦).

(٥) ذكريات علي الطنطاوي ١/ ١٥٣.

(٦) معروف بن أحمد الأرناؤوط، كاتب صحفي، من أعضاء المجمع العلمي بدمشق ١٣١٠ ـ ١٣٦٧هـ ١٨٩٣ ـ ١٩٤٨م.(معجم الأعلام، ٨٥٢).

(٧) ذكريات علي الطنطاوي ٢/ ١٢، ٧٧.

(٨) عارف بن أمين سعيد النكدي، من رجال القضاء والإدارة ١٣٠٤ ـ ١٣٩٥هـ ـ ١٨٨٧ ـ ١٩٥٧م.(معجم الأعلام ٣٧٥).

(٩) ذكريات علي الطنطاوي، ١٢/٢.

(١٠) ذكريات علي الطنطاوي، ٤/ ٥١.

أعماله:

عاش الطنطاوي مدللا في ظل أبيه، فلما ضاق بهم الحال بعد وفاة والده بدأ رحلته مع العمل والسعي والكسب، وكان عمره وقتئذ ست عشرة سنة، فكان عليه أن ينهض بأعباء أسرة فيها أم وخمسة من الإخوة والأخوات هو أكبرهم. فعمل محاسبا ثم اشتغل بالتجارة، ثم عمل مدرسا، ثم التحق بالقضاء فعمل قاضيا منذ سنة ١٩٤١م، وظل ينتقل بين محاكم دمشق حتى صار قاضيها الممتاز، والمدة التي قضاها الطنطاوي قاضيا عمليا من سنة ١٩٤١م حتى قدم إلى المملكة العربية السعودية معلما في الكليات والمعاهد سنة ١٩٦٣م، أي نحوا من ثلاث وعشرين سنة، ولكنه استمر قاضيا رسميا حتى صدر قرار بتسريحه مع عدد من القضاة الذين لا يسايرون العهد الاشتراكي في الشام؛ وذلك سنة ١٩٦٦م، وكان في أثناء ذلك كله يعمل بالخطابة والكتابة في الصحف والمجلات والتأليف وتقديم البرامج المرئية والمسموعة[١].

(١) ذكريات علي الطنطاوي ١/ ١٨٧، علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء ص١٦، ٢٢.

صفات الطنطاوي:

للطنطاوي صفات كثيرة من أبرزها:

الانطواء وحب العزلة:

صفة سيطرت عليه وظلت ملازمة له، فهو منذ صغره تعود على الوحدة، فلم يلعب يوماً مع الأولاد، ولا زار أحداً من أقرانه، وإنما كان يعيش وحده يأنس بالكتاب ويتسلى بالقراءة...[١] فحفظ ذلك عليه وقته، وبارك في عمله وجهده، حتى ترك لنا هذه الأعمال الكبيرة والآثار العظيمة، التي دلت على أنه مع وحدته، كان مهتما بأمته، واعيا لهدفه، محققا لرسالته.

سهل العريكة يبغض التعصب:

كان الطنطاوي - كما وصفه الكثيرون - سهل العريكة، لا يتعصب لرأيه إن رأى الحق في جانب غيره، حتى لقد أعلن عن هذا في كثير من مقالاته، فكان بعد أي اقتراح أو فتوى تكون له فيها رؤية خاصة، يقول: «وشيء آخر رأي لي يبدو لكم إذا سمعتموه أول مرة غريبا، ففكروا فيه ولا تردوه بادي الرأي، ثم إذا رأيتموه بعد الفكر باطلا، ورددتم عليَّ بالدليل شكرت لكم ورجعت عن رأيي، وثقوا أن أهون شيء عليَّ أن أرجع عن الخطأ إذا تبين لي»[٢].

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ١/ ٣٧.

(٢) من نفحات الحرم. علي الطنطاوي ص٥١، ط٢، دار المنارة، جدة ١٩٩٧م.

كما كان يكره التشدد والتعصب، فكان لذلك ينهج منهج الوسطية، وكان يرشد الشباب إلى الكتب التي تهدف إلى ذلك[١].

ولأن علي الطنطاوي كان أديبا اجتماعيا وقاضيا شرعيا ردحا من الزمن، فقد وعى وأدرك ومارس الإسلام على أنه دين سماحة ويسر، وليس دين غضب أو تضييق على الناس[٢].

الفكاهة والمرح:

مما عرف به الطنطاوي الفكاهة والمرح، ويلمس ذلك واضحا في بعض مؤلفاته، فكثيرا ما كان يسوق الطرفة التي تثير البهجة وترسم الابتسامة على الوجه، وكذا كان في مجالسه وأحاديثه المرئية والمسموعة، فقد كان يتخلل أحاديثه كثير من الطرائف والحكايات من التاريخ والمجتمع والفن والقضاء والأسفار والأدب...

«كان يقص الحكاية الطريفة فيضحك لها ببراءة الأطفال، وكان يسرد الحكاية الحزينة فيبكي لها بكاء الخاشعين..، كان ـ رحمه الله ـ حاضر النكتة، سريع البديهة، قوي البنيان»[٣].

---

(١) «جريدة الشعب» الشيخ علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، د/يوسف القرضاوي، ص١٣، عدد٢/يوليو ١٩٩٩م.

(٢) المجلة العربية «الطنطاوي في المكان الذي لا يشغله غيره» علي العمير، ص٩٣، عدد ٢٦٧، السنة٢٤، ربيع الآخر ١٤٢٠هـ/أغسطس ١٩٩٩م.

(٣) مجلة هاجر «السابقون إلى الدار الآخرة» أنور عبد المجيد الجبرتي، ص١٧، عدد ٥٠، السنة العاشرة، ١٥جمادى الأولى ١٤٢٠هـ/أغسطس ١٩٩٩م.

أحب الناس فيه طلاقة وجهه، والابتسامة التي لا تغيب عن محياه الجميل، وفكره العطوف الرحيم، البعيد عن التجهم والتعقيد[١].

الثقة بالنفس:

كان الطنطاوي أبي النفس، يعتز بها ويثق فيها، ويقدر شأنها وطموحها، فكان لذلك يكثر من الحديث عنها بيانا لحقها، وتقديرا لجهدها وسعيها الذي يستحق التقدير والإشادة، لا فخرا ولا منّاً، حتى صرح بهذا في قوله: «.. وكيف أني كنت من عشر سنين أقود طلاب دمشق كلهم، وأغامر بهم في ميادين السياسة، وأني لو شئت لكنت نائبا من زمن طويل! إن الناس لم ينسوا ذلك، فكيف أنساه أنا!؟ إنهم يعلمون أن في قميصي خطيباً ما يقوم له أحد في باب الارتجال والإثارة، وإيقاظ الهمم وصب الحمم، ولكن من الناس من يعقل الحسد ألسنتهم عن شهادة الحق - أستغفر الله - فما أحب الفخر ولكني اضطررت فقلت! وهل أسكت إذا سكت الناس عن بيان حقي!؟»[٢].

لقد ثبت الطنطاوي على مبادئه وفكره، فلم تغيره المحن، ولم تغره المنح، حتى قال: «إن أول كتاب صغير لي كان سنة ١٣٤٨هـ ما قلته فيه هو الذي قلته في آخر كتاب أعيد طبعه لي سنة ١٤٠٦هـ وإن تبدل مني شيء فهو الأسلوب»[٣].

---

(١) المجلة العربية «الطنطاوي في المكان الذي لا يشغله غيره» علي العمير، ص٩٣، عدد ٢٦٧، السنة٢٤، ربيع الآخر ١٤٢٠هـ/أغسطس ١٩٩٩م.

(٢) من حديث النفس، علي الطنطاوي ص٩١.

(٣) ذكريات علي الطنطاوي ١/١٤٠.

الطموح والنشاط:

إذا اتفق للنفس الطموحة النشاط الواسع والسعي الدائم تحقق لها ما تريد جريا مع الأسباب على الأغلب.

وقد كان الطنطاوي طموحا نشيطا، فتحقق له ما أراد. يحدثنا عن طموحه فيقول: «طلبت المجد الأدبي، وسعيت له سعيه، وأذهبت له في المطالعة حدة بصري، وملأت له ساعات عمري.

وكنت أرجو أن أكون خطيبا يهز المنابر، وكاتبا يمشي بأثره البريد، وكنت أحسب ذلك غاية المنى وأقصى المطالب، فلما نلته أو نلت بعضه زهدت فيه...»[١].

الجرأة والشجاعة:

من أبرز صفات الطنطاوي الجرأة في الحق، والشجاعة في مواجهة الباطل حتى سبب ذلك له كثيرا من المتاعب.

فكان في شبابه يقود المظاهرات، ويعلم الطلاب أناشيد البطولة لمقاومة الفرنسيين، ويعلمهم الإضراب عن الصفوف، والخروج إلى الشوارع، ورمي الحجارة على الجنود المتمركزين وراء الرشاشات وداخل المصفحات على مفارق الطرق[٢].

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ٣/ ٢١١.

(٢) مجلة «فجر الإسلام» من مقالة مات رجل العصر علي الطنطاوي. زهير الشاويش ص٢٢، عدد ٢١.

obeikandl.com

وكان صريحـا يقول الحق كما يعتقده، لا يخاف لومة لائم، ولا نقمة ظالم. ومواقفه في ذلك كثيرة[١].

الصدق والصراحة:

مـن أبـرز صفـات الطنطاوي الصـدق والصراحـة؛ لأن من كان جريئـاً شجاعـاً لا يكذب، وقد كان الكذب وإخـلاف الوعد أبغض شيء عنـد الطنطاوي؛ لذلك كان يقول: «وأنـا رجل متوحد منفرد لا أستطيع أن أوغل في مخالطة الناس؛ لأني لا أكذب ولا أحتمل كذبا من أحد، ولا أخلف الوعد، ولا أصبر على إخلاف المواعيد»[٢].

ويؤكـد أحد أحفاده ذلك بقوله عنه: «وقد عرفته منذ وعيت قرابة أربعين عاما لا أكاد أذكره أبدا نكث وعدا، أو أخلف موعدا»[٣].

ومما اتصف به الطنطاوي صدقه مع نفسه، والتزامه بفكره. أقر بمروءته ونخوته وفضله كل من عرفه، كما كان الطنطاوي سلفيا بطبعه وعمله، محاربا للبدع والتعصب والخرافة[٤].

---

(١) جريـدة الشعـب «الشيخ علـي الطنطاوي أديب الفقهـاء وفقيه الأدباء»، د/يوسـف القرضاوي، ص١٣، عدد٢/يوليو ١٩٩٩م.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي ٦٨/٢.

(٣) علي الطنطاوي فقيه الأدباء... مجاهد ديرانية، ص٣٤.

(٤) مجلـة «فجـر الإسلام» مـن مقالة مات رجل العصـر علي الطنطاوي، زهيـر الشاويش، ص٣٢ عدد ٢١.

وقد بلغ به الوضوح والصراحة مع نفسه ما حكاه في كتابه «من حديث النفس» الذي كشف فيه عن خواطره بجرأة وصراحة بالغة[١].

الرحمة ورقة القلب:

لقد كان الطنطاوي - رحمه الله تعالى - مع حدة مزاجه، وسرعة غضبه عطوفا حنونا، رقيق القلب؛ لذلك كان يسلك في تربية أطفاله وتوجيههم طرقا عجيبة، أسهمت في بنائهم فكريا وسلوكيا، بناء إسلاميا قويما على نحو ما ذكرته إحدى حفيداته في كتابها الرائع (هكذا ربانا جدي علي الطنطاوي).

والتي تقول: «ما رأيت والدا يحب بناته حب جدي لبناته، أو يرعاهن كما رعاهن، وما قابلت عاطفة أبوية كتلك التي يكنها لهن»[٢].

هذا الحب الشديد لبناته دفعه إلى توجيه أحفاده إلى البر بأمهاتهن، وإقناعهم بوجوب طاعتهن وخاصة عندما يغضبون من توجيهاتهن المستمرة وتنبيهاتهن الكثيرة تقول:

«... كان جدي يتعاطف بشدة معنا، فيسمعنا ويجتهد في فهمنا، ثم يؤكد أنه لو كان مكاننا لشعر نفس الشعور ولعانى نفس الألم؛ لأنه لا يرى إلا رغباته، ولا يشعر إلا بآلامه، فماذا لو نظرنا إلى القضية كما تراها أمهاتنا؟ إذا لتغير الأمر!. وماذا لو علمنا حق أمهاتنا علينا!؟ وكان لا

(١) عابدة المؤيد العظم، ط دار المنارة - جدة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

(٢) هكذا ربانا جدي علي الطنطاوي. عابدة المؤيد العظم، ص٦١.

يمـل هذا الكلام، ولا يسأم مـن إعادته على مسامعنـا وتذكيرنا به في كل حين وبكل أسلوب. فتارة يروي لنا الأحاديث الشريفة، وأخرى يقص علينـا بأسلوبه الشيق بعض قصص الصحابة مـع أمهاتهم، ويحذرنا غضـب الله ـ إن عصينا ـ في الدنيا قبـل الآخرة، ويرغبنا في ثواب الله ـ إن أطعنـا ـ والأجـر في الدنيا قبل الآخرة، فالبـر يوفق الإنسان في كل عمل يقوم به، ويجعل دعاءه مستجابا وولده ـ من بعده ـ بارا...»[١].

ولـم يكن الطنطاوي ممن يكتفي بالقـول دون الفعل، بل كان قدوة حيـة صادقـة لبناته وأحفاده تزيد مـن اقتناعهم بـه وامتثالهم لقوله، تقـول حفيدته: «... وكانـت لنا أسوة في جدي الذي ما ذكر أمه مرة إلا فاضت عيناه، حتى بعد مرور خمسين سنة على وفاتها، فكنت أخشى أن أفقد أمي كما فقدها هو، فأقضي عمري متحسرة نادمة على إغضابها، وذلـك حملني علـى أن أسعى لأكون بـارة بها البر الـذي يرضيها عني ويرضي عني الله»[٢].

وهذا درس تربوي آخر من دروس الطنطاوي تقصه علينا حفيدته، فتقـول: «في أحـد الاجتماعـات العائلية وفـي بيت كنا نتخـذه لقضاء الصيفية.. كان يجتمع الأولاد.. الصبيان والبنات. وكان جدي يتخذ كل أسبـاب الترفيه المباح، ولكنه لا ينسى خـلال ذلك توجيهنا من خلال مـا يطرأ من أحوال.. وفـي إحدى المرات أحضـر ألواحا من الشكولاه

(١) هكذا ربانا جدي علي الطنطاوي. عابدة المؤيد العظم، ص٦٢، ٦٣.
(٢) السابق، ص٦٤.

الكبيـرة، وكان يأتي بها من لبنان، ثم قطعها وجاء يوزعها علينا بنفسه وأول مـن بدأ به أنا، فاسترعى انتباهي اختلاف الأحجام وبشكل كبير، فقطـع كبيرة، وأخـرى متوسطة، وغيرها صغيرة جـدا! وهو من عادته العدل، فلماذا لم يعدل؟ وأنا أحب الشكولاه، وإذا تركت القطعة الكبيرة سيأخذها فلان، وأنا لا أريده أن يأخذها.. ثم يقضي الوقت وهو يعيرنا بأنـه قد استأثر بها.. كما أنني أحبهـا وأريدها وما دام هو قطعها بهذا الشـكل فإن عليه الـوزر.. وعندما لمحته ينظر إلى جهـة أخرى يبحث عمن يذهب إليه بعدي، اغتنمت الفرصة، وأخذت أكبر قطعة..

لكـن لـم تكن لتفوته تلـك الفعلة فقـد فعلها قصـدا.. فمضى وهو ينظـر إلي نظرة ذات مغزى، وهو يقول لي: لقد استأثرت لنفسك بأكبر قطعـة.. وقد كانت هذه الكلمـات تكفيني لكي لا أقضم منها أي قضمة، بـل لقد استحييـت وخجلت من تلـك الفعلة، بل لقد عافـت نفسي تلك الأكلـة، وجريت إلى الشرفة أتـوارى عن الناس وعن جدي بالذات، وأنا أتساءل: مـاذا سيقول عني الآن..!؟ أنانية أفضل الذات! ولكني لم أكن كذلك، فلماذا فعلت ذلك أمامه؟ ليتني أخذت أصغر قطعة لكنت أكلتها بلـذة، وجرت دموعـي بكثرة. ثم فجـأة فتح الباب ودخـل جدي قائلا: كنـت أعلم بأننـي سأجدك هنا، وكنـت أعلم بأنك لـن تأكلي القطعة، فأنـا أعرفك تمام المعرفة، أنت حساسة وخجولة، وكانت تكفيك نظرة لتفهمـي، وربما لـو كان أحد غيرك لأكل القطعة تـاركا الكلمات جانبا، فلـذة القطعة الكبيـرة أحسن، وقد يقول في نفسـه: سوف ينسى جدي هـذا الموقف بعـد دقائق، أو حتى أيام، وما الضيـر في ذلك!؟ أما أنت

فكما عرفتك مرهفة الإحساس تفهمين المراد من نظرة.. وكنت أشيح بوجهي عنه في استحياء، لكنه اقترب قائلا: كلميني فلقد علمتك والجميع بأن نكون صريحين..

- نعم يا جدي أنا مخطئة باختياري أكبر قطعة، ولكنك أخطأت أيضاً!؟

- ويجيب: كيف؟

- لقد أخطأت بتقطيعك الشكولاه بهذه الطريقة، وكان عليك أن تقطعها بشكل متساو..

- نعم أنت محقة يا ابنتي، ولكنني أردت أن أعلمكم درسا عندما قطعتها بهذه الطريقة..

- وأتساءل: كيف؟

- فيقول: انظري من النافذة هنا على اليمين أترين هذا القصر؟

- أجيب باستغراب: نعم، أراه!

- فيكمل: هل عندك مثله؟

- أجيب: لا!

- ثم يدور إلى الناحية الأخرى قائلا: أترين تلك الدور الصغيرة المعمرة من الطين؟

- وباستغراب أسأل: ماذا تقصد يا جدي؟!

obeikandl.com

- أقصد بأن الله لا يعطينا في الحياة كل شيء بقسمة متساوية، وهذا امتحان منه.. امتحان للغني هل ينفق على الفقراء؟ وهل يحمد الله؟ وامتحان للفقير هل يصبر على الفقر ويحمد الله؟!..

هل الناس متساوون في الصحة؟ بعضهم أعمى، وبعضهم مشلول، وبعضهم لا يرزقون الأطفال و.. و.. لا يتساوون في الشكل، بعضهم جميل، وبعضهم قبيح.. وكثير كثير من هذه الأمور، كالذكاء، والامتحان بالبلاء وغيرها..فالحياة ليس فيها قسمة متساوية، وربما يمر الزمان وتتزوجين أنت وأخواتك، فتعيش واحدة في قصر مثل هذا، وتعيش الأخرى في بيت صغير مع رجل فقير، ولكن علينا ألا ننسى الآخرين! صدقا أنت لم تكوني يوما أنانية، وإلا لكنت الآن قد أكلت القطعة ونسيت القصة وذهبت تلعبين، ولما كنت كلمتك تلك الكلمات، ولكن لأنني عرفت فيك الطيبة.

ويقول: كلا، إنها نصيبك، وعليك أن تأكليها كلها وأنت تضحكين، ولا أريد أن يعرف أحد بهذه القصة!!.

وفي المساء عندما حضرت كؤوس العصير كانت يدي تمتد إلى أقلها.. عندها نظر إلي جدي وضحكنا معا ضحكة هادئة.. وكان درسا لن أنساه، فمن يومها وأنا آخذ من الأشياء أقلها»[1].

(١) مجلة «الأدب الإسلامي» مؤلفات جدي ولكن بقلمي. أروى المؤيد العظم، ص ٥٦، ٥٧. العددان ٣٤-٣٥.

وهكـذا كان الطنطاوي ـ رحمه الله تعالى ـ فـي بيته عطوفا رقيقا، يربـط أطفاله بالديـن، ويوجههـم إلى السلـوك القويم بطـرق عملية ووعظيـة تترسخ في الذهـن، وتترك في النفس أثرا لا يزول، إيمانا منه بأن إصلاح المجتمع الكبير يبدأ بإصلاح البيت الصغير.

وهذه الصفات هي التي جعلت ـ بعد فضل الله ـ من علي الطنطاوي إنسانـا محبوبا، وداعية مؤثرا، وكاتبا ناجحا، ومحاضرا بارعا، وناقدا مصلحـا منصفا. وهي غاية ما تحتاجه الأمـة فيمن يتصدى لنصحها وإصلاحها بالقلم واللسان، والأخلاق والسلوك.

آثاره ومؤلفاته:

ترك الطنطاوي لنا فيضا ضخما من المؤلفات والآثار، التي طالما كان يفخر بها وحق له ذلك.

وأكثر كتبه مقالات فيها من كل لون ينشده القارئ، معارف تاريخية ودينية وأدبية ووصفية...

فقـد كتب ـ رحمه الله تعالى ـ في كثيـر من فنون الأدب مع الإجادة والإبداع؛ مما جعله يتبوأ مكانته بين كبار الأدباء في العصر الحديث.

وقد رتبت كتبه حسب تاريخ تأليفها، فكانت على النحو الآتي:

في عام (١٣٤٨هـ) ألف كتابين هما:

١ـ رسائل الإصلاح.

obeikandl.com

٢. بشار بن برد، نفدا ولم يعد طبعهما.

في عام (١٣٤٩هـ) ألف كتابين هما:

٣. رسائل سيف الإسلام.

٤. الهيثميات، نفدا ولم يعد طبعهما.

في عام (١٣٥٣هـ) ألف كتابا واحدا هو:

٥. عمر بن الخطاب (جزآن).

في عام (١٣٥٤هـ) ألف كتابا واحدا هو:

٦. في التحليل الأدبي، نفد ولم يعد طبعه.

في عام (١٣٥٥هـ) ألف كتابا واحدا هو:

٧. كتاب المحفوظات، نفد ولم يعد طبعه.

في عام (١٣٥٨هـ) ألف كتابين هما:

٨. في بلاد العرب.

٩. من التاريخ الإسلامي، نفدا ولم يعد طبعهما.

في عام (١٣٧٨هـ) ألف عدة كتب هي:

١٠. مقالات في كلمات.

١١. في سبيل الإصلاح.

١٢. دمشق...

في عام (١٣٨٠هـ) ألف عدة كتب هي:

obeikandi.com

١٣ـ بغداد.. ذكريات ومشاهدات.

١٤ـ مع الناس.

١٥ ـ فكر ومباحث.

١٦ـ صور من الشرق في إندونيسيا.

١٧ـ الجامع الأموي.

١٨ـ فصول إسلامية.

١٩ـ هتاف المجد.

٢٠ـ سلسلة حكايات من التاريخ.

في عام (١٣٩٨هـ) علق وراجع كتاب صيد الخاطر.

في عام (١٣٩٩هـ) ألف كتابا واحدا هو:

٢٢ـ سلسلة أعلام التاريخ.

في عام (١٤٠٠هـ) ألف:

٢٣ـ من نفحات الحرم.

٢٤ـ قصص من الحياة.

في عام (١٤٠١هـ) ألف كتابا واحدا هو:

٢٥ ـ من حديث النفس.

في عام (١٤٠٢هـ) ألف كتابا واحدا:

٢٦ـ صور وخواطر.

obeikandl.com

في عام (١٤٠٣هـ) ألف كتابين:

٢٧. أخبار عمر.

٢٨. قصص من التاريخ.

في عام (١٤٠٥هـ) بدأ ينشر ذكرياته:

٢٩. ذكريات علي الطنطاوي. في ثمانية أجزاء.

في عام (١٤٠٦هـ) صدر له:

٣٠. رجال من التاريخ.

٣١. أبو بكر الصديق.

٣٢. فتاوى الطنطاوي.

في عام (١٤٠٩هـ) صدر له:

٣٣. تعريف عام بدين الإسلام. وهو آخر مؤلفاته وأعظمها أثراً ونفعاً في الناس، وقد طبع أكثر من طبعة، وترجم إلى لغات عالمية عديدة[١].

على أن أكثر هذه المؤلفات كانت عبارة عن مقالات سبق نشرها في مجلات وصحف قام هو بجمعها، فضم منها الأشباه والنظائر، وألف من كل زمرة منها كتابا على نحو ما صنع كبار الأدباء.

---

(١) مجلة المنهل، قراءة في آثار الشيخ علي الطنطاوي. ص٩٨، ٩٩، أحمد بن مسفر بن معجب العتيبي، عدد ٦١، مجلد ٦ رجب١٤٢٠ هـ/ أكتوبر، ديسمبر ١٩٩٩م.

obeikandl.com

وتجدر الإشارة إلى أن كثيرا من مقالات الطنطاوي مازالت متناثرة بين أوراق الصحف والمجلات في حاجة إلى جمع وتنسيق ونشر، يقوم ببعضه حاليا بعض أحفاده[١]. فجزاهم الله خيراً.

ولـكل هذا الجهد الطيب كثيرا ما أشـاد الطنطاوي بكثرة مؤلفاته وغزارة إنتاجه.

يقـول: اقترح علـي أحد المحبين أن أنشـر المجموعة الكاملة لكل ما كتبـت، فقلت: هيهات! لقد كتبت في جرائد ومجلات ما عندي منها نسخة واحدة.

وقـد طبع لي الآن ما يقارب الأربعين كتابـا وأحسب أن الذي ضاع يمـلأ أربعيـن كتابا! أما أحاديثـي في الإذاعة والرائـي فإنها لو جمعت لجاءت في خمسين كتابا! ولكني لا أملك صورا منها، وأكثرها ما كتبتها أصلا. وأسأل الله أن يكتب لي بعض الثواب عليها[٢].

وفاته:

عاشـ الطنطاوي حيـاة طويلة استمرت تسعيـن عاماً كانت حافلة بالجهـد والعطـاء حتى فاضت روحه ـ رحمـه الله تعالى ـ بعد عشاء يوم الجمعـة الثامن عشر من حزيران ـ يونيه ـ عـام ١٩٩٩م، ودفن في مكة في اليوم اللاحق بعدما صلي عليه في الحرم المكي الشريف[٣].

---

(١) مجاهد ديرانية، راجع هامش ص٣٣ من كتاب ـ علي الطنطاوي فقيه الأدباء..

(٢) ذكريات علي الطنطاوي ٣/ ٢٤٠.

(٣) علي الطنطاوي فقيه الأدباء...مجاهد ديرانية ص٢٩.

obeikandl.com

المبحث الثاني

مفهوم الأدب الإسلامي

مفهوم الأدب الإسلامي:

قبل التعرف على مفهوم الأدب الإسلامي، وعلاقة الأدب بالدين يجدر أن نتعرف على الأدب والدين.

فالأدب له تعريفات عديدة تعرضت لها كتب الأدب والنقد.

وذلك لأن المفاهيم الأدبية فيها ما يجري في إطار الذوق والرؤية التي قد تختلف من أديب لآخر، ومنها ما يخضع للفكر أو ينبثق عنه، بخلاف المفاهيم العلمية التي قد تنضبط بالحس والتجربة.

ولعل أقرب تعريف للأدب وأشمله ما قيل: إنه التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية.

فكلمة «تعبير» تصور طبيعة العمل ونوعه، و«تجربة شعورية» توضح مادة العمل وموضوعه، و«صورة موحية» تبين شرطه وغايته[١].

(١) النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، ص٩، ط٧، دار الشروق ١٩٩٣م.

obeikandl.com

والديـن منـه ما هو صـادر عن الله الواحـد الخالـق، ومنه ما هو صـادر عن كيان أو كيانـات مخلوقة، فالثاني منه ديـن الوثنيين، ودين الماركسييـن، وديـن الإباحيين، إلى غيـر ذلك مما يصـدره من يريد الهيمنة على النـاس، ويخضعهم لأهوائه سواء كان شاملا أم محدودا. أمـا الدين الصادر عـن الله الواحد الخالق، فله تعريفـات كثيرة منها ما قيل: إنـه وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إلى الصلاح في الدنيا والفرح في الآخرة.

فيطلـق علـى ملة كل نبي بعثـه الله تعالى إلى النـاس، وهو يضاف إلـى الله لصدوره عنه، وإلى النبي لظهوره منـه، وإلى الأمة لتدينها به وانقيادها له[١].

وهـذه الملة تتضمن: «عقيـدة شاملة لتنظيم الحيـاة وتفسيرها، وتلبية متوازنة لحاجات النفـس البشرية، ومشعلا يضيء الطريق أمام الناس، ويبلغ بهم غايات السعادة والاستقرار، ووسيلة لتقويم العلاقات العامة والخاصة»[٢].

وكل ديـن سماوي خالص مـن تدخل البشر يسمـى: (الإسلام)، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[٣].

---

(١) العقيـدة الدينيـة وأهميتها في حيـاة الإنسان، د/ محمود حمدي زقـزوق، صـ ١٧، هدية «مجلة الأزهر» لشهر رجب ١٤١٥هـ.

(٢) الإسلامية والمذاهب الأدبية، نجيب الكيلاني، ص ١١، ط ٣، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٣م.

(٣) سورة آل عمران من الآية:١٩.

ولإطلاقه - تعالى - على جميع ديانات أنبيائه السابقين اسم (الإسلام)، أو لوصفه هؤلاء الأنبياء بصفة الإسلام في مثل قوله تعالى في وصف طائفة من أنبيائه عليهم السلام: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1].

وعلى هذا تكون كلمة الدين السماوي مرادفة لكلمة (الإسلام)، فإذا أطلقت كلمة (دين) كان بينها وبين دين الإسلام (عموم وخصوص) توافق من وجه، وتعارض من وجه آخر. ومن هنا يكون علينا لتحديد المفاهيم أن نقرر أن بين «مصطلح الأدب الديني» و«مصطلح الأدب الإسلامي» اتصالا من وجه وانفصالا من وجه، والذي سوف نسير عليه في هذه الدراسة هو أن مصطلح الأدب الديني يعادل الأدب الإسلامي.

علاقة الأدب بالدين:

إن علاقة الدين - على إطلاقه - بالأدب علاقة تلازم فطري لا يتصور معها انفصال أحدهما عن الآخر، ولا قيام أحدهما دون الآخر حتى في البيئات التي حاول أدباؤها ودارسوها التفلت من رابطة الدين، وصور لهم الوهم كذلك أنهم قد نجحوا في محاولتهم، فإن هؤلاء لم يلبثوا أن تبينوا - أو تبين للناقد المنصف - أن ذلك كان وهما، وأنهم تفلتوا من عقيدة ليسلموا أنفسهم إلى عقيدة أخرى...[2].

---

(١) سورة البقرة آية: ١٣٢.

(٢) مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر. د/إبراهيم عوضين، ص٨٢، ط ١ مطبعة السعادة ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

فالأديب حتما يصدر في إبداعه عن معتقد امتزج بنفسه مهما كان نوعه سواء شعر بذلك أم لم يشعر. ويبدو ذلك المعتقد جزءا أصيلا من مصادر أدبه مهما حاول إخفاءه.

نشأة الخصومة بين الأدب والدين في أوروبا:

أما من يتوهمون أن بين الأدب والدين خصومة، فقد سرى إليهم هذا الوهم عندما أطبق على أوروبا ليل حالك من القرن الخامس إلى العاشر الميلادي، وكان هذا الليل يزداد ظلاما وسوادا... لما وقع في الكنيسة من انحراف شائن، وذلك عندما احترفت الكهانة، واحتكرت المعرفة، وتسلطت بالقهر والإرهاب على العلماء والمبدعين، فشردتهم واضطهدتهم وقتلتهم، وأقامت لهم محاكم التفتيش، وصادرت حرية الرأي، وتبنت معارف ما أنزل الله بها من سلطان... كما نشأ عن النقد الكنسي في أوروبا وما أضفاه عليه رجال الكنيسة من زيف وتضليل في محاربة الأدباء الجادين- اصطناع الخصومة بين الأدب والدين، والذي يحاولون أن يقنعونا بها.

هذا النقد الفكري الاعتقادي في أوروبا إنما كان نقدا سخر فيه الناقدون بعض جوانب الدين ليقيسوا العمل الأدبي على ضوئها مستغلين في ذلك رؤيتهم الدينية القائمة على التعصب؛ فأدى هذا الموقف من رجال الدين إلى عداء الأدباء والنقاد والمثقفين الأوروبيين، وظلت الخصومة تمتد والصراع يحتدم إلى أن انفصل العلم والأدب عن الدين ورجاله، وانفصلا في رحلة الحياة.

حتى قرّ في أذهان الكثيرين أن الخصومة بين الأدب والدين خصومة فطرية، وأنهما يمثلان اتجاهين متقابلين[١].

لقد كانت تلك هي علاقة الأدب بالدين من المنظور الأوروبي في إيجاز.

أما عن علاقة الأدب بالدين في المنظور الإسلامي فتختلف اختلافا بينا عن تلك النظرة السابقة له، لأجل الاختلاف بين طبيعة الدين الإسلامي والدين بالمفهوم الغربي، والظروف التي أحاطت بكل منهما.

فالدين عندنا شامل لكل جوانب الحياة، والإسلام ليس دينا فقط يحدد صلة الإنسان بالله، بل هو دين وتشريع وقانون دولي وأخلاقي، وهو يحدد صلة الأفراد بعضهم ببعض، وصلة الأفراد بالدولة.

وهذا - طبعاً - يختلف عن الدين في المنظور الأوروبي الذي يرى أن الدين هو صلة الإنسان بربه فحسب، ومن هنا أوجدوا فاصلا بين الدين.. والعلم والسياسة والأدب وأنشطة الحياة المختلفة... ومن هنا قالوا: الدين لله والوطن للجميع..[٢].

ويمتاز الإسلام عن غيره من الأديان باعتماده على كتاب ذي

---

(١) في النقد الأدبي الإسلامي.د/ إبراهيم عوضين، ص٥٥ وما بعدها.مطبعة الشناوي ١٩٩٣م. قيم حضارية في القرآن الكريم، توفيق محمد سبع، ١٥/١، ط دار المنار،القاهرة. الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، محمد الغزالي، ص٢١، ط ٢ مؤسسة الشرق ١٩٨٥ ،عمان/ الأردن.

(٢) فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ص ١٣، ٢٦٣، ط ٤ دار المنارة، جدة ١٩٩٠ م..

خصائص فنية وسمات بيانية معجزة، يقدم أفكارا وقيما يتوسل في الدعوة إليها بكل وسائل التأثير والإقناع التي من بينها الفن بكل ألوانه وأسبابه، وفي مقدمتها التعبير الفني بالكلمة[١].

كما يمتاز بأنه لا يعرف تعبير (رجل دين) بالمعنى الشائع لدى الأوروبيين ومن نحا منحاهم، فكل متدين رجل دين، وليس لواحد هيمنة من أي لون على الآخرين باسم الدين.

ومما سبق تتضح طبيعة الاختلاف بين الدين الإسلامي والدين المسيحي بمفهومه الغربي والظروف التي تحيط بكل منهما.

وبناء على ذلك فالعلاقة بين الأدب والدين الإسلامي على وجه أقوى وأعمق وأوضح، وذلك يرجع إلى ما سبق، وإلى أن الدين الإسلامي فوق قيامه على العقيدة التي تتطلبها الفطرة، وتتوازن معها، يعتمد على كتاب ذي خصائص فنية وسمات بيانية معجزة.. تعد النموذج الأدبي الرائد للأديب الإسلامي[٢].

أضف إلى ذلك أن الإسلام دعوة عالمية، والدعوة تكون غالبا باللسان والقلم، وقوام اللسان والقلم هو الأدب[٣].

وبذلك يكون الأدب وسيلة إسلامية للدعوة إلى دين الله الخالص،

---

(١) مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر، د/إبراهيم عوضين ص٨٢.

(٢) السابق، د/إبراهيم عوضين، ص ٢٧، ٨٧،٨٣.

(٣) ذكريات علي الطنطاوي ٨/ ١٢٤.

وإبـراز قيمـه ومقوماتـه في الصـورة التـي تكشف عن مـدى ارتباطه بالفطرة الإنسانية ومدى حاجة الإنسان إليه[١].

«ومـن هنا يمكن القـول: إن الحقيقـة التي لاشك فيهـا أن علاقة الديـن الإسلامـي بالأدب أعمـق من مجـرد التقاء فـي الموضوعات، أو انعكاس فـي الأفكار، وإنما همـا نوعان من أنـواع النشاط الإنساني يلتقيان وإن افترقا في نقطة مهمة هي مصدر كل منهما.

فالديـن «الإسـلام» متمثلا فـي القرآن الكريم مصـدره خارجي، وهـو الحقيقة الإلهية المنزهة عن أي صفة أو تدخل بشري. وأما الأدب فمصـدره مـدد داخلي تظهر آثاره فـي صورة أعمال تخلـد، ويبهر بها الآخـرون أحيانا بدرجـات متفاوتة حين تجمع إلى روعـة البيان صدق الفكرة؛ لتكون قوية التأثير والتوجيه.

وفيما وراء هـذه النقطة بين الإسلام والأدب من حيث المصدر لا يـكاد اللقـاء بينهما ينحصر في مجال شـكل أو موضوع، فالذي لا شك فيـه أن إسلاميـة الأدب تكون فـي شكله كما تكون فـي مضمونه، وأنها لا تظهـر في مواقف الأديـب الحيوي وتصوراته الفكريـة ووعيه الكوني وتلون عاطفته ووجدانه فحسب، بل تتخلل نواحي الصياغة والتعبير في أدبه»[٢].

---

(١) مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر، د/إبراهيم عوضين، ص٨٥.

(٢) نحـو نظرية لـلأدب الإسلامي، د.محمد أحمـد حمدون، ص١٨ وما بعدهـا، ط ١، دار المنهل. جدة، ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.

ولـم لا.. والأدب والديـن الإسلامي يشتركان فـي المادة، والغاية، والمقومـات. فمـادة الفـن «الأدب» هـي: الحيـاة والنفـس الإنسانية، ومقوماته هي: الصدق والأصالة الفنية والمضامين السليمة.

ومـادة الديـن: هي الحيـاة والنفـس الإنسانية، ومقومـات الدين الصـادق المنـزل من عنـد الله هي: الصـدق والأصالة والمثـل العليا التـي تتواءم مع واقع الحياة، وتتطور معهـا، وتشبعها بالسعادة والإخاء والعدالة والحرية...

وغاية الفن: الإمتاع والجمال والإفادة والتحريض على بناء مجتمع أفضل.

وغايـة الدين: لا تخرج عـن إسعاد البشرية واستمتاعها بحياتها، وسيطرة المثل الفاضلة.. والتهيؤ لعالم آخر..عالم أفضل، والتنفير من المظالم والانحرافات، والعمل على هدمها[١].

والإسـلام يحـب الجمـال ويرغـب فيه، ولكـن ليس الجمـال على إطلاقـه، وإنمـا ينشد الجمال القائـم على البناء والإبـداع والتهذيب، ويرفضـ الجمـال القائم على الخـداع والتمويـه وإثـارة الغرائز؛ لأنه حينـذاك سيفقد غايتـه ويخرج عن الإطار الإسلامـي القويم، فيصير وسيلة هدم وتدمير، لا وسيلة بناء وتعمير. وهذا ما يرفضه الإسلام من الفن وغيره، ولا يلتقي معه في شيء.

(١) الإسلامية والمذاهب الأدبية، نجيب الكيلاني، ص ١٣، ١٤.

وبرغم وضوح تلك العلاقة بين الأدب والدين الإسلامي بما لا يدع مجالا للريب، نجد من يرفض هذه العلاقة، ويدعو إلى فصل الدين عن الأدب، بل عن أنشطة الحياة بعامة!.

ولا شك في أن من يقول بهذا يكون في حقيقته خاضعا للرؤية الغربية، التي ظل الغرب يدعو إليها، حريصا على تأكيدها وترسيخها في الأذهان بكل وسيلة، حتى تحقق لهم ما أرادوا؛ فانخدعت بتلك الرؤية بعض الأذهان، وسيطرت على كثير من العقول.

وذلك لأن الغرب الصليبي في رحلته الاستعمارية المسلحة أراد أن يصاحبها استعمار فكري آخر يعضد مواقفه، ويضمن بقاءه فيها، فكانت أهم وسائله الفكرية إلى ذلك الدعوة إلى فصل الدين عن الحياة، إذ علموا أنه لا سيطرة لهم على تلك الدول الإسلامية إلا إذا أبعدوا الدين عن المعركة، ذلك أن الدين هو الذي يشحذ العزائم، ويحمل أتباعه على عجائب التضحية والفداء.

ومن هنا سعوا بتخطيط حثيث لإضعاف هذا الدين في النفوس، والتقليل من شأنه؛ لإقناعنا بتلك الفكرة ونشرها بيننا.

وكان من تلك المخططات الخبيثة أنهم لما رأوا أنه لا وجه للخلاف بين الأدب والإسلام، ولا وجه لإثارة الخصومة بين الأدباء ورجال الدين؛ لأنه ليس هناك رجال دين في ظل الإسلام على غرار رجال الدين المتسلطين في ظل المسيحية... عملوا على ابتكار ما ينشئ الخصومة بين الأدب والإسلام، مستأنسين في ذلك بما هو

مثار من خصومات في البيئة الأوروبية، فنقلوا قضية الأدب والحرية، والأدب والالتزام، وناصروا في البيئة الإسلامية الدعوة إلى ضرورة تحرر الأديب من كل قيد وعدم التزامه بأي شيء..[١].

وكان من أبرز ما واجهه الأدب في العصر الحديث في إطار الفصل بين الأدب والدين الدعوة إلى قرن الدين دائما بالتخلف والجمود والرجعية، وإظهار المتدينين دائما في صور المتخلفين الجامدين الرجعيين، تمهيدا لرفض كل قديم وكل ما يمت بصلة إلى القديم من عقيدة وفكر ولغة ومقاييس أدبية وأخلاقية تحت شعار العصرية والتحديث.

كما عملوا على ربط حاضر الأمة المتخلف بماضيها مصورين أو متصورين أن سبب التخلف عن ركب الحياة العصرية راجع إلى تمسكها بالتدين وما يتصل به[٢].

وعلى الطريقة نفسها رفعوا من قيمة العقل الذي تخلص به الأوروبيون من ظلام القرون الوسطى إلى نور العلم إلى تلك الحضارة ومنجزاتها الحديثة؛ ليخلصوا من ذلك إلى أن مثل هذا العقل جدير بأن يرسم للإنسان سبيله إلى الحياة الهنيئة السعيدة دون حاجة إلى رسل أو أنبياء يربطونهم بعالم الغيب وما يصدر عنه من شرائع وقوانين، بل إن بعضهم رأى أن يهتبل فرصة هذا الزلزال العنيف الذي أصاب

(١) مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر، د/إبراهيم عوضين، ص٦٤.

(٢) مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر، د/إبراهيم عوضين، ص ٦٥.

الأمــة العربية، ويستغل الموقف في التهوين من شأن المعجزة القرآنية فــي مجال البيان، دعما لمن نهضــوا للتشكيك في القرآن الكريم ذاته، وقصــدا إلى إبعــاد المسلمين عنه، حتى ينفرط عقدهــم تماما بعد أن تقــرر لديهم أن القرآن الكريم هــو المحور الذي يدور حوله المسلمون، وأنه هــو الوثاق الذي يشدهم جميعا بعضهم إلى بعض في بناء محكم، تتكســر علــى صلابته وإحكامــه كل محــاولات الغزو، وتضيــع هباء كل محاولات التفريق؛ لأنه يجمعهم دائما على كلمة سواء..!

كمــا بدا ـ كذلك ـ في محاربة اللغة العربيــة محاربة شرسة أخذت أشــكالا مختلفة امتدت أكثر مــن مئة عام، تارة بالهجوم عليها والتقليل من شأنها، وأخرى بالهجوم على المتمسكين بها المدافعين عنها بهدف التخلــص من هــذه اللغة، وصــرف الأمة عن الاجتمــاع عليها؛ لينفرط عقدها من ناحية؛ وليصبح القرآن الكريم غريبا عنهم، فتنفصل الأمة عن دينها وتاريخها من ناحية أخرى.

ولخطــورة تلــك الدعــوات وأمثالهــا ـ التي كان لا يجتــرئ أحد من أصحابها عن الإعلان المباشر عنها ـ كانت تثار متدثرة بشعارات براقة زائفــة تخفي في طياتهــا الأغراض الدنيئة والسمــوم الناقعة؛ ليسهل ابتلاعها والإقبال عليها[1].

ولــذا تشرب بعض أبناء هــذه الأمة تلك الدعــوات، واستماتوا في اعتناقهــا والدفــاع عنها، حتى أصبحوا يمثلون خطــورة عظيمة لم تكن

(١) مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر، د/إبراهيم عوضين، ص٦٤ـ٦٧.

لسابقيهم، فهم من أبناء هذه الأمة ودعواتهم تتاح لها الفرص... لخلق أتباع لها يرثونها جيلا بعد جيل.

كما كان من أثر ذلك أن انصرفت طائفة أخرى نحو النقل والأخذ عن الغرب في علومه المستحدثة وخاصة في الفنون... فكتبوا القصة الحديثة والشعر الحديث والمسرحية، وقلدوا عددا من المذاهب الأدبية وعددا من أعلام الأدب هناك.

والعجيب في الأمر أن أدباءنا قد اقتفوا آثار كتاب أوروبا في تجاهلهم للعامل الديني الإيجابي، بل جعلوا الدين شيئا والفن شيئا آخر، وفصلوا بينهما فصلا تاما... حتى نشأ لون جديد من الأدب يشبه في سماته سمات الأدب الأوروبي من إغراق في تصوير بشاعة رجال الدين أو سذاجتهم المفرطة، وأنهم أمثلة للشعوذة، وأنموذجا للسلبية المشينة، وأدب يفخر بالتحلل والانطلاق من إسار الدين ومثله وأخلاقياته، ويعده صورة للتخلف والرجعية، وحربا على حرية الخلق والإبداع[١].

ومع أن هذه الدعوات الغربية ظاهرة البطلان حتى في أوروبا نفسها التي عملت على نشر هذا الوهم وحرصت على ذيوعه واعتناقه، حتى في الوقت الذي كانت تتصاعد فيه الدعوة لفصل الدين عن الأدب في أوروبا كان هناك من كبار الأدباء والنقاد من يدعو إلى مزج القيم والدين بالأدب، وإدخال الدين في أنشطة الحياة[٢].

---

(١) الإسلامية والمذاهب الأدبية، نجيب الكيلاني، ص٢٢-٢٧.

(٢) نحو نظرية للأدب الإسلامي، د.محمد أحمد حمدون، ص ٢٢، وما بعدها. من هنا نعلم، محمد الغزالي، ص٥١، ط ٥. دار الكتب الإسلامية.

ولكن هناك طائفة من أدبائنا لا تسمع إلا إلى تلك الأصوات المنحرفة والدعوات الباطلة والمذاهب الفاسدة المتناقضة وتدعو إليها، لذا وقع كثير من الأدباء في أسر تلك المذاهب الغربية، وأصبح يخوض في بحار الاتجاهات الأدبية التي تتلاطم على الساحة، والتي لا ثبات لها، ولا تتناسب مع أدبنا وطبيعته العربية الإسلامية، مما أدى إلى ضياع كثير من المواهب، ووأد نشاطها الإبداعي تحت بناء لا يفيد ومنهج لا ينفع.

بل إن منهم من أصبح يمثل خطرا حقيقيا بما يشيع في أدبه من تحلل وإباحية، أو شيوعية واشتراكية.

لكل ذلك كان لابد من قيام الأدباء الإسلاميين بالدعوة إلى اتجاه أدبي واضح السمات، مميز الخصائص والأهداف، يقوم على ثوابت تحميه من الذوبان والانمحاء، مع تناسبه مع قيمنا وديننا وطبيعة حياتنا، فكانت الدعوة إلى الأدب الإسلامي وقيام رابطته الأدبية العالمية تلبية لهذا الهدف.

المقصود بالأدب الإسلامي:

لعل أقرب تعريف للأدب الإسلامي في تصوري هو: أنه كل تعبير فني بالكلمة يصدر في إطار التصور الإسلامي للفن والحياة.

لذلك فإن من يرى تخصيص الإسلام بما بعث به محمد ﷺ فيقصر الأدب الإسلامي على ما يصدر عن أتباعه فحسب إنما يضيق

مـن نظرته ويحجر علـى رحابته؛ إذ الإسلام الذي بعث به محمد ﷺ لا يختلف في شيء مـن أصوله وقيمه عن الإسلام الصحيح الذي بعث به سابقـوه من الرسل والأنبياء، والإسـلام الصحيح البعيد عن التحريف والأهواء هو الذي يتفق مع الفطرة الإنسانية السليمة، ومن ثم يرى بعض النقـاد أن كل أدب يصدر عن الفطرة الإنسانية، فيتفق مع الإسلام في قيمه وخصائصه ومنهجـه، فهو أدب إسلامي وإن صدر عن أديب غير مسلم!.

obeikandl.com

مظاهر الاتجاه الإسلامي في أدب علي الطنطاوي

«الدراسة الفنية»

ليتعرف الدارس على مظاهر التوجه الإسلامي أو غير الإسلامي في أدب ما، عليه أن يقف أولا على المواطن التي يستطيع الناقد أن يبحث عن تلك المظاهر فيها، وقد أشار أستاذنا الدكتور/ إبراهيم عوضين إلى تلك المواطن في قوله:

«الناظر المتأني في العمل الأدبي المستكمل مقوماته الأساسية، يلاحظ أنه يتكون من مجموعة متجانسة ومتناسقة من العناصر الفنية - تنبض بها العبارات وتشف عنها - هي التي يتحقق بها العمل الأدبي في هيئته المتكاملة والمتمازجة حتى يبدو بناء فنيا متوازنا جميلا، يخاطب في الإنسان السوي كل أبعاد الإنسان المكرم - من ماديات وروحانيات وعقليات - على قدر متناسب متلائم، فيستقبله بعاطفته وشعوره، كما يستقبله بقلبه وعقله؛ ليجد القبول الشامل لديه، الذي يستحوذ على إعجابه ورضاه، دون أن يتملق فيه بعدا على حساب بعد»[١].

(١) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص١٨٣.

«وهذه المقومات - أو العناصر - يمكن إجمالها على وجه التقريب في أربعة عناصر هي - الموضوع، والصيغة، والوجدان، والخيال»[١].

«وإنما كان هذا على وجه التقريب: لأن الموضوع يستتبع بالضرورة العناصر الثلاثة الآتية، لأن الموضوع الفني لا يتصور نشوؤه في نفس الأديب مجردا أو معزولا عن بقية العناصر «فلا يمكن أن يستقيم العمل الأدبي في إنسانيته إلا إذا كان مزيجا من تلك العناصر جميعها»[٢].

فالبحث عن التوجه الديني في أدب الطنطاوي يستلزم التعرف على توجهه الإسلامي في موضوعاته وأفكاره وأسلوبه ووجدانه، وخياله، في فنونه الأدبية المختلفة حتى تتضح الصورة، وتتبين الحقيقة، وذلك - إن شاء الله - سيكون من خلال الفصول الآتية:

* الفصل الأول: مظاهر الاتجاه الإسلامي في موضوعات الطنطاوي وأفكاره.

* الفصل الثاني: مظاهر الاتجاه الإسلامي في أسلوب الطنطاوي.

* الفصل الثالث: مظاهر الاتجاه الإسلامي في وجدان الطنطاوي.

* الفصل الرابع: مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي.

---

(١) السابق، ص١٨٤.

(٢) السابق، ص٣١٥.

obeikandl.com

الفصل الأول

مظاهر الاتجاه الإسلامي
في موضوعات الطنطاوي وأفكاره

المقصـود بمظاهـر الاتجاه الإسلامي فـي موضوعات الطنطاوي وأفكاره:

مفهوم مظاهر:

«ظهر الشيء: بالفتح ظهورا: تبين، وأظهرت الشيء بينته[١].

والظهور: بدو الشيء الخفي[٢].

والمظهر: مكان الظهور[٣].

والظاهرة: هي كل واقعة يمكن إدراكها بالحواس والتجربة[٤].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٢٧.

(٢) السابق، ٤/ ٥٢٧.

(٣) المنجد في اللغة والأعلام، فوزي المعلوف ص٤٨٢.

(٤) معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، ص٤٠٠، مكتبة لبنان.

obeikandl.com

(الاتجاه) واتجه له رأي أي سنح، وهو افتعل، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها، وأبدلت منها التاء وأدغمت.

ووجه النجم: ما بدا لك منه. ووجه إليه: ذهب. والتجاه: الوجه الذي تقصده[١].

وشيء موجه: إذا جعل على جهة واحدة لا يختلف[٢].

وعلى هذا فإن المقصود بمظاهر الاتجاه الإسلامي في أدب الطنطاوي:

بيان الدلالات الموضحة لتوجه الطنطاوي ومساره الإسلامي في أدبه، وتلمس بواعثها فيه، وسيكون في هذا الفصل –إن شاء الله– من خلال أربعة مباحث:

المبحث الأول: موضوعات الطنطاوي وأفكاره في خطبه.

المبحث الثاني: موضوعات الطنطاوي وأفكاره في قصصه.

المبحث الثالث: موضوعات الطنطاوي وأفكاره في تراجمه.

المبحث الرابع: موضوعات الطنطاوي وأفكاره في مقالاته.

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١٣/ ٥٥٦.

(٢) السابق، ١٣/ ٥٥٨.

obeikandi.com

المبحث الأول

موضوعات الطنطاوي وأفكاره في خطبه

ذكر أستاذنا الدكتور/ إبراهيم عوضين أن «الموضوع الأدبي ثمرة تلاقح قوي بين الإنسان مع ما يصادفه في جوانب الحياة الممتدة من أفكار، ومشاهد، ومواقف وأحداث»[١].

وهذا يعني أن الموضوع الأدبي قد يكون واحداً، ولكن تناوله يختلف من أديب لأديب، حيث يتأثر الأديب في تناول الموضوع بتوجهاته الخاصة التي تلفته في الموضوع إلى ما يتناسب مع تلك التوجهات.

أي إن التوجه الإسلامي لا يقتصر على الموضوع الإسلامي فحسب، ولكنه يلازم الأديب مع كل الموضوعات، فعلى الناقد أن يكشف الأسرار التي تدفع كل أديب في رؤيته إلى موضوعه، ومدى تلاؤم موضوعه مع حالته، ثم مدى تلاؤم حالته مع ما يأخذ به نفسه من قيم، وما يستقر عليه من معتقدات، ثم تلاؤم هذا وذلك مع فطرة الإنسان فيه، ومصدر شذوذ الشاذ منها.. إلى آخر كل تلك النظرات الفاحصة الناقدة التي تنتهي بالكشف عن التلاؤم الفكري والوجداني مع الصياغة»[٢].

---

(١) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص٢٩٩.

(٢) السابق، ص٣٠٣.

والناظر على ضوء ذلك - في موضوعات علي الطنطاوي الخطابية يلاحظ أن توجهه الإسلامي واضح تمام الوضوح فيما أثر من موضوعات خطبه، فحين جعل السياسة موضوع خطبته كان فيها مستجيبا لنزوعه الإسلامي في نقد الحاكم؛ إذ جعل معاييره النقدية لمن يسوس البلاد هي القيم الإسلامية، فعاب عليهم العبث بحياة الناس بعيداً عن شرع الله، حتى شكا صاحب الدين من انتشار المحرمات، وشكا أصحاب الأموال بوار الأسواق، والنهب المعلن، والنصب الظاهر باسم التأميم، وشكا المعلمون والآباء من هزال المناهج، وقلة العلم، وشكا الموظفون والعمال من الغلاء الذي لم يعد يطاق، ونتج عن سوء الحكم اضطرار الناس إلى نبذ تلك الوحدة التي فرضت بين مصر وسوريا، على الرغم من أن الوحدة إحدى المقاصد الإسلامية، لما نشأ عن تلك الوحدة من إشاعة الاستبداد والظلم والفوضى.

ولم يكتف الشيخ الطنطاوي بتشخيص الداء، ولكن بحيوية المسلم انطلق يبسط وسائل العلاج وقواعد البناء.

وحين جعل دعوة الإسلام موضوعه وجدناه يستجيب لتوجهه الديني، فبين خصوصية هذه الدعوة في شمولها ووضوحها، وعرض لمزاياها وجوهرها وغايتها، وأسباب بقائها وصلاحيتها لكل الأزمان، وذلك تثبيتا للمسلم على دينه في زمن طغيان المادية والمذاهب الغربية.

والشيخ في خطبته الوطنية «مساندة الجزائر» يستجيب - كذلك - لتوجهه الإسلامي؛ إذ جعل محورها مساندة هذا الشعب في مقاومة

المحتـل الفرنسي، ناصـرا بذلك المظلوم على الظالـم، ومعتمدا على الإقناع العقلـي، والاستجاشة العاطفية، فكشف عن طرق من التناقض فـي الحيـاة الفرنسيـة، وصـور مـن القهر الـذي تنزلـه بالجزائريين وغيرهم، مستنهضا الهمم لمقاومة هذا العدو الظالم.

وهـو كذلك فـي اجتماعياته، حيث صرح بوجـوب ارتكاز الإصلاح الاجتماعي على الديـن، واستعرض بعض العيوب الاجتماعية، موضحا تعارضهـا مع الإسلام وخطرها على البناء الاجتماعي، على الرغم من تزييها بزي الحضارة والتقدم.

وقد التزم الشيخ بذلك النهج في خطبته التأبينية، حيث يمدح في المتوفى خلقه وعلمه وتدينه.

- كمـا تتجلى فـي خطب الطنطـاوي قيم أخلاقيـة واضحة، تنبع مـن ثقافة إسلاميـة واسعـة، وإدراك واع لمقاصد الشريعـة والعقيدة الإسلاميـة، أراد الطنطاوي من خلالها نقل الناس من مفاسد العادات وانحرافات الأخلاق والسلوك إلى مكارم الأخلاق وكريم الخصال.

فهو داعية يدرك دوره في تثقيف الناس وتصويب أخطائهم الفكرية والأخلاقية والسلوكية على أساس من الدين القويم ومنهجه المستقيم.

فتظهـر القيـم الخلقية في خطبتـه «دعوة الإسـلام»[1] من خلال حديثه عن الإسلام كدعوة تحمل مقومات البقاء والجمال والكمال.

---

(١) فصول إسلامية، ص٩ وما بعدها.

بمـا لهـا من مصـدر قوي ثابـت لا تزلزله نوازل الزمـان ولا عبث الإنسـان؛ لأنها من رب العالمين الذي قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1].

وبمـا لهـا من منهـج أخلاقي قويـم، يضمن سلامـة المجتمع من انحرافات الفكر ومزالـق الهوى، فيسمو به إلى إنسانيته وفطرته بعيدا عن غرائز النفس وتسلط الهوى.

وبما لها من منهج تشريعي متكامل يشمل كل جوانب الحياة، ليكفل لها العدالة والأمن و الاستقرار.

وفـي خطبتـه التي ألقاها في تأييد الانفصـال، بدت قيم إسلامية كثيرة أفاض في بيانها، كضرورة تغيير المنكر وإحلال المعروف محله، وضـرورة قيام كل فـرد بواجبه تجـاه الآخرين؛ لتسد الثغـور وتستقيم الحياة بتكامل الجهود وتكاتف القوى.

كما تبدو تلك القيم في ثورته على الأوضاع السيئة المخالفة للشرع من استبداد وسفه، وسوء تدبير، وعدم تقدير لعواقب الأمور.

وفـي دعوته إلى وحدة المسلمين على أساس الدين الخالص، وفي التحذير من عاقبة العصيان، والتخويف من غضب الرحمن لمن تنكب الطريق وضل السبيل الواضح في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

---

(١) سورة الحجر، آية: ٩.

وكذا في خطبته «لمساندة الجزائر» اتضحت القيم الخلقية فيها من خلال دعوته إلى البذل والعطاء في سبيل الله، والتعاون على البر والتقوى، والتأكيد على حقوق الأخوة الإسلامية، ووحدة الكيان الإسلامي الذي يستوجب وحدة الشعور بين أبناء الأمة جهادا وسلما، سرورا وحزنا.

والدعوة إلى الولاء للمسلمين، والتبرؤ من أعدائهم أعداء الدين، وحث النفوس على الغيرة الإسلامية على الأرض والعرض والدم الإسلامي، الذي ينتهك حرمته الأعداء، الذين يجب تطهير البلاد من أرجاسهم بالبذل والتضحية والتعاون والتوحد.

وهذه كلها قيم إسلامية دعا إليها الإسلام وأكدها.

وتتمثل القيم الخلقية في خطبته «أسبوع التسلح» في الدعوة إلى التبرع والسخاء في سبيل الله؛ لتتحقق مهمة الأمن والقوة والإعداد الذي دعانا الله تعالى إليه بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[1].

وفي التأكيد على أهمية الأخذ بالأسباب، واتخاذها وسيلة لتحقيق النتائج دون الاعتماد عليها، بل يكون الاعتماد على الله وحده؛ لأن الأسباب كلها بيديه، والنتائج وفق إرادته.

(١) سورة الأنفال، آية ٦٠.

وفي كشف مخططات الأعداء، وبيان ما يحاك للمسلمين في الخفاء؛ ليأخذوا حذرهم ويعدوا ما يجب أن يكون في مواجهتهم.

وأما عن خطبته في «التبرج والاختلاط» فقد دعا فيها إلى قيم أخلاقية تبني المجتمع وتضمن استقامته، تتمثل في حمل العلماء لمسؤولية الكلمة وتقديم النصيحة وتغيير المنكر الذي يفسد الحياة بأوضاره ويعكر صفوها بأوشابه.

ودعا إلى ضرورة العفة والحياء والتستر، اللاتي جعلهن الله من أسلحة الأمة ضد الشيطان والرذيلة، فبهن تغلق أبواب الشر وتسد نوافذه وتدرأ مفاسده، امتثالا لأوامر الله تعالى وطاعته.

كما دعا إلى قيام الأب بمسؤوليته تجاه أسرته، والحفاظ عليها من خطورة التبرج والاختلاط اللذين حرمهما الله تعالى.

وكذا في تنبيه الناس لما تتعرض له الأمة من غزو مدمر يأتيها من كل حدب وصوب من داخل الأمة الإسلامية على أيدي أبنائها من المستغربين، ومن خارجها على أيدي أعدائها من المستشرقين، حتى أصبحت الأمة الإسلامية في غربة حقيقية عن تعاليم الإسلام ومناهجه، فغدت بذلك لقمة سائغة ينتهبها الأعداء، ودمية في يد هؤلاء الذين تسلطوا على مواقع التوجيه والتعليم؛ ليمكنوا لأولئك بما يبثونه من سموم الفكر وخبيث الأخلاق والعادات التي تفسد الفطرة وتوهن العقيدة، مبينا أنه لا خلاص للأمة من أيدي أولئك وهؤلاء إلا بفقه الدين، والدعوة إلى آدابه وأخلاقه ومبادئه والتمسك بها.

«ونـراه وهو يعـدد أسباب هوان الأمة وضعفهـا وهزيمتها، فتعرف فيه الخطيب الآسي الذي يعرف من أين أُتيت الأمة، ويعرف دواءها، بل ويصـف لها الدواء، وهو القيادة المتمسكة بكتاب الله والعودة إلى شرع الله الحنيف، والأخذ بأسباب القوة»[١].

وفـي خطبتـه «أستاذنا الجنـدي» نراه دعا فيها إلـى قيم أخلاقية أكدها الدين، وبرزت من خلال حثه على تقدير العالم والمعلم، والقيام بحقـه من الإجلال والتكريـم، وحفظ عهده ومواصلـة رسالته وجهده؛ بالإخلاص في العمل والحفـاظ على قيم الإسلام وإحيـاء لغته ابتغاء مرضاة الله.

وهذه الأفكار بهذه المعالجـة تعكس استجابة الطنطاوي للإسلام وقيمـه التـي لا تقبـل تزييـف الحقائـق أو انحـراف الرؤيـة، أو تعمية الجماهير.

كما تعكس موضوعاته في خطبـه، امتلاء مشاعره بالحس الديني والفكـر الإسلامي. كما توضح إيمانه العميق بأفكاره، مما أضفى عليها الصـدق والقوة والإقناع، وأبعدها عـن الخلط والاضطراب والسطحية والغموض.

---

(١) «الأدب الإسلامـي» الشيـخ علي الطنطـاوي الخطيب الأديب، عبد الباسـط أحمد، ص٩٧، ٩٨، العددان (٣٤-٣٥)، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢م.

obeikandl.com

المبحث الثاني

موضوعات الطنطاوي وأفكاره في قصصه

الذي يتأمل موضوعات الطنطاوي القصصية وأفكاره فيها يرى أنه اتخذ من القصة أداة ووعاء فنيا لتوصيل أفكاره وتدعيم اتجاهه، خاصة عندما رأى تبني كثير من كتاب القصة اتجاهات هدامة، تصور الرذائل وتثير الغرائز، وتدور في محور الجنس والخرافة التي تضعضع بنيان المجتمع، وتهدم قيمه وأخلاقه؛ ولذلك كان الطنطاوي في قصصه التاريخية يصدر عن تصور إسلامي واضح، فنراه استلهم المنهج القرآني في عرض قصصه التاريخية، التي جاءت متنوعة الشخصيات متعددة المواقف؛ لتؤدي معاني إسلامية ثرية في صور فنية؛ ولتغرس في المتلقين هذه المعاني وتلك القيم الإسلامية بطريقة غير مباشرة من خلال الشخصيات وما تقوم به من مواقف وأحداث ركز فيها على المواقف التي تصور السماحة والعدالة والكرامة الإسلامية في أبهى صورها، والتي أضافت إلى الإسلام نصرا بعد نصر، وفتحا بعد فتح كما في قصة «بيت المقدس» و«هيلانه ولويس» و«قضية سمرقند».

ومنها ما عرض فيها للشخصية الطموحة التي تركب الأخطار وتغامر طلبا للرقي وبحثا عن إثبات النفس واستغلال مواهبها والاستفادة بطاقاتها كما في قصة «هجرة معلم».

ومنهـا ما عرضـ فيها للشخصيـة الإسلامية حين تكـون إيجابية منفعلـة بهمـوم أمتها، منشغلـة بقضايا وطنهـا، فاعلـة، تنتفض فيها الكرامة؛ ليحيي الله بها موتى القلوب، ويكون الإصلاح والتغيير كما في قصة «رجل وامرأة».

ومنها ما تنـاول فيها جرأة العالم وقوته المستمدة من الحق الذي يدعـو إليه، ويتمسك به حتى تنقاد له الدنيـا، ويخضع له أهلها كما في «قصة عالم».

وعلـى هذا النهج نـرى الطنطاوي في موضوعاتـه وأفكاره. بدافع مـن توجهـه الإسلامي. يتمثل في قصصه من أحـداث التاريخ ما يبرز العظمـة ويرسم القدوة ويبني الثقـة... متجنبا في ذلك أحداث الفتن والسقطـات - التـي تكدر صفـاء النفس وتنال من ثقتهـا برجالنا - إلا بمقدار الإرشاد إلى علاجها والتحذير من الوقوع في مثلها.

١. من قصصه التاريخية:

أ. قضية سمرقند: تلك قصة عرضها الطنطاوي، وقد تجلى فيها العدل في أبهى صوره، والطاعة لله ولرسوله ﷺ في أعظم مواقفها.

وقد قدم لنا الطنطاوي هذه القصة؛ ليبرز لنا أثر العدل في إحياء النفوس، ودوره في نشر الإسلام واتساع رقعته؛ وليعرف الجيل الصاعد بروائـع تاريخـه الإسلامي الـذي يجهله، وعظمـة أجـداده المسلمين الذيـن وجهت وتوجه إليهم سهـام النقد والانتقاص من أعداء الإسلام

والمنخدعين بهم، بهدف ضرب القدوة وهدم المثل أمام الشباب بالتشكيك في كل ما هو إسلامي.

وقد اشتملت هذه القصة على قيم إسلامية عديدة تمثلت في وصف واقع أهل الوثنية البغيض؛ ليتضح الفرق بين ظلام أهل الشرك ونور أهل التوحيد.

وكشفت عن بغض أهل الكفر لأهل التوحيد وكيدهم لهم بشتى الوسائل. وحملت القصة دعوة المسلم إلى الرفق وسعة الصدر، ومعاونة الناس والسعي في هدايتهم إلى الخير، والأخذ بأيديهم إلى طريق الله، مع عدم الاستخفاف بأي عمل صالح أو جهد ضئيل في سبيل الله.

وتومئ القصة إلى الحكام وأصحاب المناصب بترسم خطا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تواضعه ورفقه وزهده وإخلاصه، وعدله، حتى يكون لهم في قلوب الناس ما كان له من عز وإجلال وحب.. وما عند الله للمتقين أجل وأعظم بفضله ورحمته.

والقصة: تدعو إلى انصياع المسلم للحق ورضائه به ولو شق ذلك على نفسه، لإيمانه بأن الخير مع الحق أنى كان، وبأن الناس أمام القضاء سواء.

كما تدعو إلى إسراع المسلم في رجوعه عن خطئه، مهما بلغت منزلته وعلت مكانته حين يبدو له وجه الصواب.

ودلالة هذه القصة تتمثل في أن العدل يشفي النفوس ويبدد ظلام القلوب، ومن هنا كان هو السر الحقيقي في قوام الحياة وارتقاء الأمم وصدق الانتماء، ودخول الكثيرين في الإسلام.

ب- «تـاج كسـرى» في هذه القصـة رأينا الطنطـاوي مستجيبا لنزوعه الإسلامـي في إبراز موقف من مواقف عظمة النبي ﷺ وتناول دليل من دلائل نبوته وصدق رسالته.

ومـن يتأمل هذه القصة ير أنها حملت قيمـا كثيرة، وأكدت معاني إسلاميـة جليلـة، فقد أظهـرت أثر التحفيـز بالجوائـز والمكافآت في دفـع النفوس لتحقيق الأهداف والوصول إلى أبعـد الغايات. وبينت أثر التخويـف والعقوبـة فـي ردع النفوس وتبديـد أطماعهـا والقضاء على شهواتها، ولأجل ذلك جعل الله الجنة والنار، والثواب والعقاب.

فسراقة حملـه على ركوب الأخطار وقطع المفـاوز، المكافأة التي رصدتهـا قريش حتى هان عليه التعـب، وسهل عليه من أجلها النصب، فلمـا ساخت أقـدام فرسه في الأرض تملكه الخـوف وأزال من نفسه الطمع وخضع لأمر النبي ﷺ ورجع من حيث جاء.

كما أظهرت القصة شدة حب أبي بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ وكمال يقينه بتأييد الله ونصره.

وأشـارت إلى لجوء المسلـم إلى ربه واعتماده عليه خاصة في وقت الشدائد.

ودلالة القصة صدق النبي ﷺ في كل ما جاء به، وأنه لا ينطق عن الهـوى، وتهدف إلى زيادة اليقيـن في الله وقوة الإحساس بعظمة النبي ﷺ وأصحابه.

٢ - قصص الطنطاوي الاجتماعية:

تصدر قصص الطنطاوي ذات المحور الاجتماعي في أفكارها وموضوعاتها عن تصور إسلامي واضح، وتستهدف غاية إسلامية سامية، و تهتم في سبيل ذلك بإسلامية الوسيلة والمنهج؛ لذا نراه اتخذ من «المنهج الواقعي»[١] مرجعا له يستمد منه موضوعه، بمعنى أن قصصه إما أن تكون عن واقع تاريخي صادق، أو عن واقع اجتماعي حدث أو يمكن حدوثه في الواقع.

ومع ذلك لم يأخذ الطنطاوي المنهج الواقعي على علاته، بل طوعه للإسلام؛ حيث لم ينقل الواقع نقلا جافا دون أن يعمل عقله وخياله وموهبته الفنية في معالجته معالجة فنية، تبرز فيها الوجهة الإسلامية والقيمة الأخلاقية التي تؤكد بالطريقة العملية الحية أن الدين بمثله وقيمه وواقعه التاريخي هو الأصلح لإقامة حياة صالحة، وهو الأقدر على مسايرة مستجدات الحياة والتغلب على عقباتها وتحدياتها.

ومن هنا فموضوعات الطنطاوي في قصصه هذه، تهدف بمحتواها، وتطرح في ثناياها أفكارا وقيما تسهم في حل مشكلات المجتمع ومعالجة أمراضه معالجة إسلامية سوية.

فهو حين عرض في بعضها لنماذج غير سوية جسد فيها مخاطر

---

(١) معنى الواقعية في علم الجمال: كل فن يحاول أن يمثل الأشياء بأقرب صورة لها في العالم الخارجي. والواقعية هنا بالطبيعة نسبية؛ لأن تمثيل الأشياء لابد أن يتأثر بميول الفنان (معجم مصطلحات الأدب، ص٤٦٧).

الانحلال والتفسخ ومآسي الانحراف؛ لينفّر منها ويصدّ عنها، كخطر الرشوة، والسفور، والظلم، والاستسلام لهوى النفس، والتخلي عن الواجب، والاستسلام للأعداء.

وذلك كما في قصة «الكأس الأولى» و «طبق الأصل» و«اليتيمان» و«الخادمة» و«بنات العرب في إسرائيل»... إلخ.

وعرض في بعضها لنماذج إسلامية سوية تمثلت فيها الروح الإسلامية والقيم الإنسانية، فأحدثت إصلاحا، وأحرزت نجاحا، وتركت آثارا في حياة الناس، كما في قصة «ناظم باشا» و«جبل النار» و«شيخ في مرقص»... إلخ.

أ- قصة «بنات العرب في إسرائيل» التي يبدو توجه الطنطاوي الإسلامي فيها من خلال غيرته الإسلامية، وإشفاقه لمصاب المسلمين؛ حيث مثلت هذه القصة مهانة العرب، وجسدت واقعهم المرير المستذل؛ ليستحث فيهم الغيرة والبطولة الميتة، من خلال عرضه لمعاناة فتيات العرب في إسرائيل، وما يتعرضن له من فقد الشرف واستغلال الجسد، إذ ليس هناك أشد من ضياع العرض وهتك الشرف، لتحريك نخوة العربي المسلم وتحفيز همته.

وقد تجلت في ثنايا القصة قيم ومحاذير إسلامية عديدة.

فرأينا المسلم الذي ينتصر على نفسه، ولا يستسلم لهواه حين يدرك أبعاد المأساة، أو يعي ما يستيقظ به حسه وضميره.

ورأينـا البنت التي تدافع عـن شرفها وتستميت في حفظ عرضها، فلمـا غلب علـى أمرها رأيناهـا، وقد استحالـت حياتها مـرارة وبؤسا وجحيما، تتمنى الخلاص منه كل لحظة ولا تستطيع.

ورأينا الأب الذي يبذل حياته في سبيل الدفاع عن أسرته، والحفاظ على عرضه وكرامته.

ورأينـا قسـوة اليهود ونذالتهم فـي أبشع صورهـا وأحط دركاتها، حيـن استباحوا دماء المسلمين وسلب أعراضهـم، والمتاجرة بأجساد فتياتهم على سمعهم وبصرهم.

ومـا كان لهم ذلك وهـم أذل الأمم وأجبنها - لولا تخاذلنا وجبننا وطمعنـا فـي الحيـاة التي فقدناهـا يوم فقدنـا الإيمـان والغيرة وحب الشهادة في سبيل الله.

يقـول: «لقد أراقـت دم عفافها؛ لأن رجال قومها لـم يريقوا دماء أجسادهـم فـي سبيـل الأرض وفي سبيـل العرض، لقـد خدروها بهذه الإبـرة كما خدروا زعماء العرب بالوعـود وبالخداع وبحطام من الدنيا قليل»[1].

ب- وفـي قصة «طبـق الأصل» يلاحظ توجه الطنطـاوي الإسلامي في موضوعهـا من خلال عرضه لقضية التبـرج، وإبرازه لأثرها السيئ وعواقبهـا الوخيمـة، التي تسببـت في مقتـل الفتاة وسجـن أخيها

(١) قصص من الحياة، علي الطنطاوي، ص٢٥.

وعذاب الأب بمصابهما؛ ليعلم في النهاية أنه خدع بزائف المدنية، وخدر بأكاذيب التقدمية، وذلك حين أباح لفتاته التبرج وأقرها على التحرر السافر، فجنى بذلك أوزار بعده عن الإسلام وتخليه عن قيمه وأخلاقه التي تضمن للمتمسكين بها السعادة والنجاة.

وقد احتوت هذه القصة على قيم ومحاذير إسلامية عديدة، فأكدت على خطورة التبرج الذي يعرض الفتاة للخطر؛ إذ في التبرج إغراء بالرذيلة ودعوة إليها وخروج على تعاليم الإسلام السامية وقيمه النبيلة.

وأشارت إلى ضرورة التثبت من الأخبار، والتحذير من التقليد الأعمى، وخداع الكلمات. وبينت القصة أهمية التربية الإسلامية الملتزمة في حماية الشباب من مزالق الشيطان، وانحرافات السلوك وسوء المصير.

وفي القصة تحذير من إطلاق النظر إلى المحرمات؛ إذ النظر إلى الحرام باب هلاك من ولجه لم يضمن النجاة منه.

وهكذا نرى توجه الطنطاوي الإسلامي واضحا في قصصه التي استقاها من المجتمع لمعالجة مشكلاته وعرض قضاياه «بعدما حدث في نفوس الجيل من شعور بالثورة على الأوضاع الاجتماعية القديمة والتقاليد البالية»[١].

(١) الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، أ/ أنيس المقدسي، ص ٥٠٩، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت.

٣- قصص الأطفال:

وتسير موضوعات الطنطاوي وأفكاره في قصصه التي قدمها للأطفال، في نفس الإطار الذي يصدر فيه عن تصوره الإسلامي، إذ كان من أهم أهدافه منها، ربط الأطفال بتاريخهم المجيد الممتلئ بالعبر والمثل التي تسهم في بناء النشء، وتربية نفسه تربية إسلامية تقوم على الاعتزاز بدينه وتاريخه العظيم[١].

وقصد بها تنمية الشعور بالدين، وتقوية الالتزام بمنهجه القويم الذي يضمن للإنسان النجاح والسعادة في الحياتين، والتنفير من الخروج عليه، وبيان شقاء المخالفين له.

أ- في قصة «وزارة بعنقود عنب» نرى كاتبنا مستجيبا لتوجهه الديني الذي يرفع شأن القيمة، ويحث على الفضيلة من خلال قصة ذلك الوزير المتواضع، الذي كان طالباً، فجد في طلب العلم، حتى إذا نفد ماله، بحث عن عمل، فلما لم يجد وعدم السبب لجأ إلى خالق الأسباب، فاستجاب له وفتح له الأبواب حتى نال الوزارة، وكان ذلك من الله جزاء له على صبره وبره وإخلاصه ووفائه وأمانته التي نطقت بها الأحداث وأعلنت عنها المواقف.

وقد اشتملت هذه القصة على قيم عديدة، وأكدت على أخلاق حميدة، من تمثلها نال رضوان الله، فسعد به في دنياه وأخراه.

---

(١) المجرم ومدير الشرطة، علي الطنطاوي، ص٧، ط٢، ١٩٩٧م، دار الفكر، دمشق.

فبينت أن التواضع يرفع صاحبه ويحببه إلى القلوب، وأشارت إلى ضرورة الإخلاص في طلب العلم، والدأب في تحصيله مع تعلم حرفة يتكسب منها المسلم قوته، ويصون بها عرضه وكرامته و عزة نفسه.

ودعت القصة إلى لجوء المسلم إلى ربه واعتماده على خالقه، فهو وحده القادر على تخليصه مما يقع فيه، وإنقاذه من مخاوفه.

والقصة معنية بطرح القيم الإسلامية والإشادة بها لحمل النفوس على حبها ودفعها إلى تقديسها، وذلك من خلال ما رسمته من نتائج عظيمة نالها ابن هبيرة بفضل استجابته لدينه، وصدوره عنه، في إخلاصه بتقديم العون لأخيه المحتاج وتلبية حاجته، وورعه في تحريه للحلال والحرام في مأكله ومكسبه، وأمانته في رد المال لصاحبه، وعفته عن أخذ شيء منه مع حاجته الشديدة إليه.

وبذلك نجح في الامتحان، ففتح الله له باب العمل بعدما أغلق عليه، حتى نال الوزارة، وكأن الله كافأه بعفته عن الحرام الخبيث بأضعاف من الحلال الطيب.

وهكذا هدفت القصة إلى الحث على الفضيلة والإخلاص في عمل الخير.

... وكانت تجسيدا حيا لما قرره الإسلام، من أن الجزاء من جنس العمل، وأن الله يجازي العباد على قدر نياتهم وصلاح أعمالهم.

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[١]. وقال أيضاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾[٢].

ب - وفي قصة «التاجر والقائد»: نرى الطنطاوي مستجيباً لتوجهه الإسلامي في موضوعه؛ إذ جعل محوره يدور حول أهمية القصاص ودور معاقبة الجناة في إقامة الحق ونشر الأمان والعدل بين الناس، وذلك من خلال موقف الخليفة المعتضد، الذي كان سريع القضاء بالغ العقوبة حتى صار للضعيف وللمظلوم ركنا، فكان ذلك «القائد الكبير» يخاف ذلك الخياط المسكين، وما خافه هو! وإنما خاف الحق الذي يملكه، والسلطان الذي يرهبه، فأدى الحقوق على الفور، واستتب الأمن وساد الأمان، وانعدمت الشكاية. ولم لا، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٣].

كما تضمنت القصة دعوة المسلم لإزالة المنكر، والتصدي له، ونبذ السلبية، ليجد على الخير أعوانا يرتفع بهم الإثم ويعلو بهم الحق.

---

(١) سورة الرحمن، آية ٦٠.

(٢) سورة الأنفال، من الآية ٧٠.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٧٩.

obeikandl.com

المبحث الثالث

موضوعات الطنطاوي وأفكاره في تراجمه

١. الموضوعات والأفكار في تراجم الطنطاوي

أ- ترجمة الطنطاوي الشخصية الذاتية أو ذكرياته

بداية يصعب الإحاطة بأفكار الطنطاوي وموضوعاته في ذكرياته، حيث إنه كان فيها موسوعيا مستطردا؛ ولذلك تداخلت الموضوعات وتزاحمت الأفكار على نحو من المرونة السلسة، وتداعي المعاني الجذاب.

ومع ذلك يلاحظ المتلقي لذكريات الطنطاوي بوجه عام استجابته لتوجهه الإسلامي ومنحاه الدعوي، وذلك من خلال ما قدمه فيها، مما يهتم به القارئ في التعرف عليه، وعلى مقومات شخصيته الأدبية والفكرية والأخلاقية، تلك الشخصية الإسلامية التي أدهشتنا بأسلوبها العذب وفكرها الإسلامي القويم.

ومن هنا حدثنا عن طفولته وبيئته، وما مر به من أحداث أثرت في توجهه وفكره، كما تكلم عن أسرته، وتعلمه ومدرسيه، وأصدقائه، ورحلاته وأسفاره، واطلاعه وأعماله، وكتاباته وأفكاره، في كل مرحلة من مراحل حياته.

obeikandl.com

فهذا أستاذه المبارك الذي يحدثنا عنه وعن أثره فيه بقوله:

«ولم يكن الشيخ يقتصر في درسه على الفقه، بل كان فيه مع الفقه تفسير وحديث وقواعد أصولية يسوقها بعبارات موجزة بليغة «يلقيها ويرددها ويكتبها بخط الثلث على اللوح والسبورة بعرض الحوارة (الطباشير)، وكان يتخذ لكل شيء ضابطا، جملة موجزة تجمع الأحكام، وتسهل على اللسان، ولا تذهب من الأذهان. ولطالما دلنا على كتب، قرأتها وانتفعت بها، وهي رأس مالي في العلم والأدب، ولولاه ما سمعت بها»[١].

فمن هذا الموضوع وأمثاله في ذكريات الطنطاوي يمكننا التعرف على مقومات شخصيته، وتكوين اتجاهه الأدبي والفكري وروافده.

كذلك تتضح وجهة الطنطاوي الإسلامية في ذكرياته من خلال موضوعاته التي عرض فيها إنجازاته، ومواقفه التي تغلب فيها على المصاعب في سبيل الحق والإصلاح؛ ليشجع الشباب على الثبات والإقدام، ويلفت الأنظار إلى قيمة الفضيلة وجمال القدوة.

كحديثه عن مواقفه في مواجهة الفرنسيين ومن والاهم، ومواقفه في الدفاع عن الفضيلة، وعن الأدب الهادف والملتزم، وثورته على جور الحكام وانحراف الأقلام التي تصور الرذيلة والانحلال، ومواقفه في إصلاح التعليم والقضاء، مما ينطق بشجاعته، ويعلن عن صراحته؛

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ١/ ١١٩.

حيث كان لا يعرف في الحق مجاملة ولا مداراة، من ذلك موضوعه «في القضاء في دوما»:

والـذي يعرض فيه لإصلاحاته.. ومواقفه الفاضلة في أيامه الأولى - بعـد توليه القضاء في دوما سنة ١٣٦١هـ - مع أصحاب النفوذ وطلاب الوسائـط «المفتي» ومأمـور الأوقاف، وأحد أعضـاء المجلس النيابي، وهذا الرابع الذي أنقل ما كتبه عنه حيث قال:

«.. والعـدو الرابـع الـذي كسبته في أيامـي الأولى فـي دوما أحد أتبـاع الأمير فـواز الشعلان، كان يتكلم باسمه، يراجـع الدوائر ويقابل رؤساءهـا، يدافع عن قضايا جماعة الأمير من عشيرته «الرولة» (وهي فـرع كبير من عنـزة) وعنزة من بني أسد بن ربيعـة، ومن عنزة أسرة آل سعـود الكرام. دخل علـيّ في دعوى أقيمت عليـه، وقد خبروني بعد الجلسة أنهم يخشون الإدلاء بها، خوفا على أنفسهم.

فسألتهم: هل سبق أن شهد عليه أحد فقتله أو آذاه؟ قالوا: لا. فلما كان يوم المحاكمة تصورت عظمة الله، وعظم جزائه لمن يجترئ عليه، وكبير ثوابه لمن يدافع عن الحق الذي أمر به، وتوجهت إلى هذا الرجل - ونسيت اسمه - فحذرته عذاب الله، ونبهت في نفسه إيمانه، وقلت له كلاما لا أستطيع أن أعيده الآن؛ لأنني لم أكن أنا الذي يتكلم به، بل كان يتكلم به يومئذ على لساني ما اعتراني من الصلة بالله والاعتماد عليه، ومازلت في هذا حتى اغرورقت عيناه بالدمع، وقال أمام الناس وهم لا يكادون مـن دهشتهم يصدقون ما يسمعون، قـال: نعم، والله له عندي حق، وأنا أستغفر الله، وحقه مضمون!.

فقلت له: بارك الله فيك، وأعظم ثوابك. وأثنيت عليه وبينت له عظيم ما جاء به عند الناس، وعند الله!. وكذلك يغلب الحق إذا عرفت كيف تدل عليه، وتنبه إليه، وتوقظ الإيمان في نفس المؤمن...»[١].

ثم يبين نتائج هذه المواقف الحاسمة بالنسبة له؛ لتتضح منها الحقيقة في أذهان من ينشدون الحق، ويخشون في سلوكه أهل الباطل. فيقول:

«كثرت على ألسنة المنتقدين من الوجهاء ومن المتزعمين، وكان جمهور الناس يدعون لي، ولا يملكون عني دفاعا، ولا يملكون لي نفعا، ولكن الله الذي أمر بأن ندافع عن المظلوم هو القادر على حمايتي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[٢].

فأمضيت سنين طوالا في «دوما» وأنا على هذه الوتيرة، وما لقيت يوما من أحد سوءا، والذين تحاملوا عليّ، ونظروا النظرة السوداء إليّ، عادوا فأثنوا عليّ لمّا رأوا بأنني لا مصلحة لي عند أحد، ولا أبتغي لنفسي نفعا، ولا أدفع عنها ضرا، ووفق الله، وخرجت من دوما ولا يزال ذكري فيها بحمد الله عطراً طيباً.

ولا تلوموني إذا قلت ذلك عن نفسي، فإنما أقوله تشجيعا لغيري في أن يسلك هذا المسلك مثلي»[٣].

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ٤/ ٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) سورة الحج، آية ٣٨.

(٣) ذكريات علي الطنطاوي، ٤/ ٢٠٤.

فالطنطاوي -كما نرى- إسلامي في موضوعه، حيث عرض من خلاله نماذج واقعية، وضح فيها كيف يكون التعامل الإسلامي مع أصحاب الوساطة، والتصدي لاستغلال النفوذ الذي يتسبب في ضياع الحقوق، وإهدار الطاقات واختلال الأوضاع، ووضع الأمر في غير أهله، وإعطاء الشيء لغير مستحقه، مما ينذر بالخراب واشتعال الأحقاد، وتدني المستوى، بل وانهيار المجتمع وضعف أركانه.

وانتشار هذا الأمر وشيوعه يحتاج إلى وقفة حقيقية في القضاء عليه، وقدوة عملية أكثر من احتياجه إلى أقوال إنشائية وخطب وعظية؛ ليكون ذلك أجدى في النفوس وأعمق في الأثر، ومن هنا سوغ الطنطاوي أن يقدم لنا هذه المواقف عن نفسه، لا افتخارا كما قال، ولكن انتصارا للحق وإغراء به، وحثا عليه، وتعريفاً بعاقبته عند الله وعند الناس.

وهذا الموضوع مع سمو غايته في إحياء القدوة، وضرب المثل لمن يريد الإصلاح، حمل قيما عظيمة ومعاني سامية تدل على أن من أخلص لله أيده، ومن توكل على الله كفاه، وأن على المسلم ألا ينشغل بكيد الناس وسفههم مادام على الحق، الحق لا يرضي أهل الباطل، وقد سُبَّ النبي ﷺ ورمي بالحجارة.. فما أثناه ذلك عن الحق الذي بعث به.

ودل على أن الخير كامن في نفوس الناس، وإنما يحتاج إلى من يوقظه وينبهه ويحركه بالوسيلة التي تناسب غير مبال بما يكون، إذ لا تؤتى الأمم إلا من قبل خوف علمائها، ومداهنة حكامها، وصمت عقلائها!.

كذلك يبـرز توجه الطنطاوي الإسلامي في موضوعاته التي كشف بها عما يـدور في عصره من أحداث تتشوق النفس لمعرفتها، وتتطلع لرؤيته الإسلامية فيها، وهي كثيرة في ذكرياته:

كتلـك التي تحـدث فيها عـن الأتـراك الاتحاديين، والفرنسيين المحتليـن، والوحدة والانفصال، واحتلال فلسطين، وحديثه عن إنشاء المجـلات والجمعيات، ورأيه في الحضارة الغربية، والمذاهب الأدبية، والقوميـة العربية، والأدباء والمفكرين، والقادة والمصلحين، والأطباء والمحامين.

قـال عن ظهور مجلـة الرسالة في مصر: «كانـت مصر في السنة التي أتكلم عنها ١٩٣٣م كالأرض العالية ينزل الماء منها إلى ما دونها، ولا يصعد مما تحتها إليها، فالمطبوعات في مصر (من كتب ومجلات) تقرأ في الشام (أي سورية ولبنان وفلسطين) وفي العراق، وفي جزيرة العـرب. والمطبوعات في الشام تقرأ فـي العراق والجزيرة، ولكن قلما تقرأ أو تعرف في مصر، والمطبوعات في العراق لا تكاد «يومئذ» تصل إلى غيره. أما الجزيرة فلم تكن فيها مطبوعات تذكر. أما المغرب فقد قطع المستعمرون صلتنا به، فلا يصل إلينا شيء من مطبوعاته..»[١].

وتكلـم عن كُتّـاب الرسالة، وعبر عـن رأيه فيهم، فقـال: «وقرأت كل كتـب «العقاد»[٢] يومئذ، والمطالعـات وساعات بين الكتب والديوان

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ٣/ ٢٥، ٢٦.

(٢) عباس بن محمود بن إبراهيم بـن مصطفى العقاد، ت ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤م، إمام في الأدب، من المكثرين كتابة وتصنيفا مع الإبداع، (معجم الأعلام ص٣٨٣).

وغيرهـا، وكنـت وأنا طالب أعجـب بفكره وأستفيد مـن سعة اطلاعه، ولكن لا أطرب كثيراً لأسلوبه..»[١].

ثـم تكلم عن «المازني»[٢] فقـال: «على أني أحببت المازني، وكنت أطرب لأسلوبـه وفكاهته وسخريته، وتأثرت به حينـا، وحاولت تقليده، ولكـن من أيـن لي خفة روحـه؟ وإن كان يؤذيني منه تهاونـه بأمر دينه وكلامـه عـن شرب الخمـر كأنه يتكلم عـن شرب الشـاي! وسواء لدي أشربها أم كان على طريقة الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون. فالمهم عنـدي أثر مـا يكتب الكاتب فـي نفوس القراء، وعليـه أن يذكر أن الله سائله عنه!»[٣].

فأمثـال هذا الموضوع يعطينـا ملامح واضحة لأهم أحداث عصر الطنطاوي ورؤيته لها، إذ كان للإسلام بمقاييسه ومعاييره ثقله في رؤية الطنطاوي وأحكامه، كما تبين في حكمه على أدب المازني، ومنحاه.

ويبـرز توجه الطنطـاوي الإسلامي في موضوعـات ذكرياته حين كان يقطع سيرها بموضوعات تحمل أفكارا ورؤى يرى أنها أفيد للقارئ مـن ذكرياتـه؛ لأنهـا تبصره بمـا يصلح أمر دينـه، ويفيد أمـر دنياه. كموضوعاته:

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ٣/ ٢٥، ٢٦.

(٢) إبراهيـم بن محمد بن عبد القادر المازني، ت ١٣٦٨ هـ/ ١٩٤٩م، أديب مجدد من كبار الكتاب (معجم الأعلام، ص٢٣).

(٣) ذكريات علي الطنطاوي، ٣/ ٢٦.

ملاحظات عـن المحاماة والمحامين، والقضاء والقضاة، وهجوم علـى الأطباء، ودفاع عـن الأطباء، وخواطر في المـوت والحياة، ووحي صورة، ووقفة على المخيمات...

فموضوعـه «هجوم علـى الأطباء» عرض فيه لأخطـاء بعض الأطباء علـى سبيل التنبيه والنصح، ثم انتقل منـه إلى الحديث عن الممرضات؛ مقدما النصح لإصلاح ما يقعن فيه من أخطاء وأخطار. فكان مما قال:

«وأنا أعلم أن قضية الممرضات مشكلة من المشكلات، وقد وقعنا فيهـا من قبل في الشام، فجربوا تجارب كثيـرة منها: أنهم اتفقوا مرة مـع الراهبـات، وقد قضيـت شهورا فـي مستشفى الحكومـة في السنة التـي أشـرت إليهـا ١٩٥٦م، ورأيت هـؤلاء الراهبات: أنهـن متسترات لا يبـدو منهـن إلا الوجه والكفان فقـط، ثيابهن نظيفة أبـدا، وعملهن غالبـا مضبوط، ولكن الضرر منهـن أكبر مرات ومرات من النفع بهن؛ لأنهـن لا ينسيـن دينهن، وأنهن داعيـات إلى النصرانيـة، وأن عملهن الأول أن يدخلـن المريضـات فـي النصرانية، فإن لـم يستطعن عملن علـى إخراجهن مـن الإسلام، فإن لم يقدرن علـى ذلك، سعين بمهارة شيطانية إلى إضعاف الإيمان في نفوسهن!.

فـلا الممرضات المدنيات نفعننا، ولا الراهبات أفدننا، فما العمل إذن!؟

هـذه مشكلـة لا أستطيع أنـا وحدي حلها، ولابد لها مـن مؤتمر أو مؤتمـرات، تفتش عن طريق يوصل إلى الغاية المطلوبة، ولا يمر بسالكه

علـى جهنـم، ذلك لأن صحة الأبـدان لا يجوز أن تكـون وسيلة لإضاعة الأديـان!. والمسلم يتقيد بأحكام دينـه، يترك الحرام، ويقوم بالواجب في جميع الأمكنة والأزمنة فـي كل الحالات والمقامات. وأول ما يخطر على البال هذا السؤال:

لماذا لا يكون في مستشفيات الرجال، ويقوم على تمريض الرجال، ممرضـون من الرجـال؟ من يقدر أن يأتيني بحجـة مقنعة واضحة بأن الرجـل لا يستطيـع أن يكـون ممرضا؟ وأنه لابد من امـرأة تكشف على عورات المرضى الأجانب، وتكون معهم!؟ وربما كانت مناوبة فباتت مع الطبيب المنـاوب، وحدهما بالمستشفى! التمريـض ضروري، والمهنة لابـد منها، لكن بشـرط أن نبقى متمسكين بأحـكام ديننا، فلا نغضب ربنـا لنشفـي مرضانا، والشفـاء من الله، والله لا يشفـي بمعصيته بل يشفـي بطاعتـه، وإذا زال المرضـ من الجسـد مؤقتا في هـذه الدنيا بالمعصية، فإن الحياة الحقيقية الطويلة هي الحياة الآخرة.

فمـاذا ينفعنا شفاء المرضى هنـا، وأن نبتلى بمرض الحريق بنار جهنم!؟

تقولون: لقد خرجت عن الموضوع! نعم، وإن هذه لم تعد ذكريات، وإنمـا صـارت مواعظ...! نعـم، هذا صحيـح. ولكن من قـال لكم: إن المواعـظ مذمومـة دائما، ولـو توقفت عليهـا حياتنـا وسعادتنا ورضا ربنا؟..»[1].

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ٤/ ٢٢٧، ٢٢٨.

وهكـذا نـرى الطنطـاوي في موضوعاتـه تلك، لا يسـرد الأحداث فحسـب دون تحليـل لها أو الإفـادة منها، بل نراه يلفـت الانتباه إلى ما فيها من مزايا أو عيوب عارضا العلاج الإسلامي، والحل الجذري الذي ينفي عـن أفكاره وموضوعاتـه الجمود والجفاف، وينفـي عن ذكرياته الموت والإهمال باعتبارها أثرا حيا، وتاريخا يتجدد.

ب – موضوعات الطنطاوي وأفكاره في تراجمه الذاتية الغيرية:

يتضـح توجه الطنطاوي الإسلامي فيها من خلال جعل موضوعاته -في ذلك- عن عظماء التاريـخ الإسلامي، وتقديمهم نماذج إسلامية مشرقة، تنير طرق التائهين في سراديب الحياة المادية، والمنخدعين بهـا؛ وليلفت بها انتبـاه المسلمين إلى ما كان عليـه أسلافهم من عزة ومجد وسلطان وعدل، لمّا كان منهجهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والطنطـاوي كما هـو إسلامي فـي اختيار موضوعاتـه.. إسلامي فـي أفكاره التي تضمنتها تلـك الموضوعات. ومن مظاهر ذلك اعتناؤه بإظهـار القيـم الإسلامية في شخصياتـه دون تزيد أو ادعـاء بإثبات مصادره، وتركيزه على الجوانب الإنسانية والبطولية التي ترسم القدوة وتمجـد الفضيلـة، وتشي بمسـاوئ الواقع وأمراضـ العصر من خلال التاريخ. فيقول تحت عنوان «عمر مع أهله»:

يبدأ بأهله:

«كان عمـر إذا نهى الناس عن شيء جمع أهله فقال: إني قد نهيت

الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإني والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني، فمن شاء منكم فليتقدم ومن شاء فليتأخر.

يمنع عن أهله الهدايا:

أهدى أبو موسى الأشعري امرأة عمر عاتكة بنت زيد بن عمرو ابن نفيل طنفسة -سجادة صلاة- أراها تكون ذراعا وشبرا، فدخل عليها عمر فرآها، فقال: أنى لك هذه؟ فقالت: أهداها لي أبو موسى الأشعري!.

فأخذها عمر فضرب بها رأسها، ثم قال: عليّ بأبي موسى الأشعري وأتعبوه. فأُتِيَ به قد أتعب وهو يقول: لا تعجل عليّ يا أمير المؤمنين!.

فقال عمر: ما يحملك على أن تهدي لنسائي؟

ثم أخذها عمر فضرب بها فوق رأسه وقال: خذها فلا حاجة لنا فيها.

صادر ربح ولده:

عن عبد الله بن عمر قال: اشتريت إبلا وسقتها إلى الحمى، فلما سمنت قدمت بها، فدخل عمر السوق، فرأى إبلا سمانا، فقال: لمن هذه!؟

فقيـل: لعبد الله بـن عمر. فجعل يقول: يا عبد الله: بخ بخ!!... ابن أمير المؤمنين»! فجئته أسعى فقلت: ما لك يا أمير المؤمنين؟

قال: ما هذه الإبل؟

قلت: إبل أنضاء «هزيلة» اشتريتها، وبعثت بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون.

فقال: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين! اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين! يا عبد الله: خذ رأس مالك، واجعل الربح في بيت مال المسلمين»[١].

فالطنطـاوي هنا يعرض علينا صورة من صـور الحاكم العادل مع أهلـه، إذ يبدأ بهم؛ لعلمه أن الناس يتطلعـون إليهم، فإن وجدوا منهم خوفا ورهبة كانوا أشد منهم انضباطا والتزاما.

ولـم يكن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن يكتفي بالقول، بل كان عمليا، فتفقد أهله وتعقـب ما وصلت إليـه أيديهم، وزجرهم على مـا كان مباحا لغيرهم؛ ورعـا منه وحزما؛ لذلـك خضعت الدنيـا له، واستقامت فـي يده، فما كانت لفتنة أن تقوم أو ثغرة تفتح وهو حي!.

ونرى الطنطاوي في أفـكاره مستجيبا لتوجهه الإسلامي بتجسيده المعانـي الإسلامية في شخصياته بصورة قشيبة، وأثواب جميلة تغري بها وتحث على نشرها واعتناقها.

---

(١) أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر، علي الطنطاوي، ناجي الطنطاوي، ص ٢٩١، ٢٩٢.

لذلك نراه ركز على صفات وأخلاق الأبطال والفاتحين، وسلوك العلماء والمجاهدين؛ ليحرك الرغبة في التشبه بهم والتمسك بأخلاقهم.

فهذا عمر رضي الله عنه «حين قدموا عليه بسيف كسرى ومنطقته وزبرجه، فقال: «إن أقواما أدوا هذا لذوو أمانة!.

فقال له علي رضي الله عنه: إنك عففت فعفت الرعية»[1].

وكأنه يريد أن يقول: كيف لهذه النفوس البشرية أن تخون أو تغل في شيء، وهي ترى العفة ناطقة في قائدها، ومتيقنة أن ما في يده راجع إليهم ومنفق في مصالحهم دون سفه أو تفريط.

ويقول: «وانظر إلى عمر في الموقف، الذي يطغى فيه أعدل الحكام وأشدهم ديمقراطية، ويزهو ويتعاظم، انظر إليه حين جاءه خبر فتح فارس، وظفره بكسرى، وامتلاكه بلاده حين أصبح هو إمبراطور فارس، وملك الشام والجزيرة، إنه بدلا من أن يشمخ بأنفه، ويصعر خده، ويمشي في موكب الظفر مشي قواد روما، صعد المنبر، فأعلن سياسته الشعبية، وأكد صلته بالرعية، وبين أنه خادم للشعب، يسد حاجته ما قدر عليها، فإذا عجز واسى الشعب حتى يستويا في الكفاف. وأعلن أن الحاكم ليس مالكا لرقاب الناس، وليس الشعب عبداً له، ولكنه عبد لله، وأمين للشعب، فإن وفّى الأمانة فقد فاز، وإن خانها خسر خسرانا مبينا.

(١) قصة حياة عمر، علي الطنطاوي، ص٣٥، ٣٦.

ذلك هو موقف عمر، حين ربح المعركة الكبرى»[١].

فالطنطاوي هنا أبرز إخلاص الرعية لعمر رضي الله عنه بسبب عفافه وتواضعه، الناتجين عن فهمه الصحيح للإسلام وتطبيقه الصادق لتعاليمه.

ومن إبراز الطنطاوي للقيم وتمجيده لها، ما جاء في ترجمة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما تحت عنوان «سيدة جليلة من سيدات المجتمع الإسلامي الأول» يقول:

«يا أيها السيدات اسمعن قصة هذه السيدة.

سيدة أبوها عظيم، وزوجها عظيم، وهي عظيمة في مواهبها، ومواقفها في نفسها وأعمالها.

سيدة ذات «مبدأ» وفت له، وثبتت عليه. وسيدة شاركت في أجل الأحداث، في السلم وفي الحرب. سيدة كانت ربة بيت، صبرت على مره ولم تبطر بحلوه. سيدة كان لها من نبل القلب، وكبر العقل، وثبات الأعصاب، ما لم يكن مثله إلا للقليل من عظماء الرجال.

وفي قصتها بعد عبرة للنساء وأمل لمن ابتليت بالفقر من الزوجات، وإثبات لمن احتقر النساء أن المرأة قد تكون أنبل وأعقل من الرجال...»[٢].

---

(١) السابق، ص٣٦.

(٢) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي، ١/ ٣٩.

ثم يورد بعد ذلك من أفعالها ما يؤكد صدق دعواه، ويبرز عظمتها في سلوكها وأخلاقها وصبرها، وقناعة نفسها. فيقول:

«يـا سادتي! لما تزوج الزبير أسماء لـم يكن له في الدنيا شيء، لا مـال ولا عقـار، ليس له إلا فرسه، فلم يكن عليهـا أن تصبر على الفقر فقـط، ولا أن تروضـ نفسها علـى الحرمان، وتخـدم زوجها وحده، بل كان عليهـا أن تخدم هذا الفرس. وصبرت على هذا كله، وكانت مطيعة لزوجها، حريصة على مرضاته.

رآهـا رسول الله مرة وهو على ناقته، وهي تحمل النوى، وهي أخت زوجته، وزوجة ابن عمته، فقال لناقته: إخ.. إخ!! ينيخها ليركبها معه.

قالت: فذكرت غيرة الزبير، فأبيت.

أبت أن تركب مع الرسول، الطاهر المطهر المعصوم، خوف سخط زوجها، وما كان زوجها ليسخط، ولكنها المبالغة في مرضاته.

ولمـا أعطاهـا أبوها خادما ترعـى الفرس، رأت نفسها قد غدت ملكة.

يـا أيتها القارئة! يا من لها زوج فقيـر، فهي تتألم للحرمان، وتكاد تذم القدر! اسمعي بقية الخبر.

إنهـا صبرت على هذا، فكانت العاقبة أنها اغتنت، وانصبت عليها وعلى زوجها النعم، حتى إنه لما مات كانت تركته..! من يحزر كم كانت

تركـة الزبير!؟ كم خلـف زوج أسماء بعد جمعها النـوى ودقه وصبرها على الفقر؟

خمسة ملايين درهم ومائتي ألف فقط لا غير...»[١].

فالطنطـاوي من خلال هذا العرض البـارع.. أراد أن يرسم المثل والقدوة العملية للمرأة المسلمة من خلال السيدة أسماء بنت الصديق رضي الله عنهما فـي صبرها وتقواها واحتمالهـا مصاعب الحياة مع زوجها الفقير، وحرصهـا مع ذلك علـى مرضاته، امتثالا لما أمر بـه الدين وطاعة لله رب العالمين.

ثـم حاول بعد ذلك أن يبشـر كل صابرة تقية من خلال عرضه لما آل إليـه أمـر أسماء - ببركـة صبرها وطاعة زوجهـا - من غناها بعد فقرهـا، وعزها بعـد شقائها، وراحتها بعد تعبهـا، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[٢].

وهذا هو شأن الحياة وقضاء الله فيها ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٣].

ولـم يقـف الطنطاوي عند هذا الحد، بل حـاول أن يتلمس للمسلم المثل والقدوة الحسنة من الزبير بن العوام - زوج أسماء رضي الله عنهما الذي كان طاهـر اليد، شجاع القلب، سمح النفس. فيقول عن ثروته: «لم يجمعها

---

(١) السابق، ١/ ٤٣، ٤٤.

(٢) سورة الشرح، الآيتان: ٥، ٦.

(٣) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

من الحرام، ولا من أخذ أموال الناس، ولا لأنه قعد في المجلس فدرس ووعظ، وقال: أنا حواري رسول الله، وابن عمته، فأعطوني! بل تاجر مثلما تاجر عبدالرحمن بن عوف والصحابة، وصار كما صار الكثيرون منهم من أصحاب الملايين.

وكذلك كان المسلمون، كانوا رجال دنيا ودين، مال وتقى، كانوا جنًّا في النهار، ورهبانا في الليل.

وكان الزبير مع ذلك سمحاً كريماً، كان له هذا المال، وكان له ألف مملوك يشتغلون لحسابه، ولم تجب عليه زكاة؛ لأنه لم يكن يدخر شيئا.

أما هذه السيدة الفاضلة فلم تخجل أولا من فقر زوجها، ولم تبطر بغناه، وبقيت كما كانت، امرأة خير وبر وإحسان»[1].

وهكذا يتضح تركيز الطنطاوي على القدوة العملية، وإبراز دورها في استقامة الحياة، كما يفهم منه أيضاً تعريضه بالسلوك المنحرف ونقده لضجر الزوجات من أعباء الحياة وجزعهن من فقر الأزواج، وكذا طلب الرجال للمال من غير جهته الشرعية واختلال ميزان المسلم بين دينه ودنياه، وحرص الأغنياء وبخلهم.. وتواكل الفقراء وكسلهم.

كل هذه أمراض اجتماعية عرّض الطنطاوي بها، من خلال ضرب القدوة والمثل الإسلامي الحي في السيدة أسماء وزوجها الزبير رضي الله عنهما.

(١) رجال من التاريخ علي الطنطاوي ١/ ٤٤.

كما تظهر وجهة الطنطاوي الإسلامية قوية واضحة في تناول شخصياته، حين يبرز دور الإيمان في دفع الشخصية للإصلاح والتغيير وحملها على اختراق آفاق بعيدة في الجهاد والفتح، والعلم والحلم، والإنفاق والصبر...

فالإيمان هو وحده الذي دفع «العز بن عبد السلام»[١] إلى إحياء حماسة المصريين، وجعله يوقظ الإيمان في قلوبهم؛ ليردوا هجوم التتار الذين اجتاحوا دنيا الإسلام من أقصى خراسان إلى أدنى الشام، ولم يبق أمامهم إلا مصر.! وما كانوا ليردوهم بشيء غيره. يقول الطنطاوي:

«.. وخرج الجيش المصري على أتم هيئة، وأكمل استعداد تتقدمه فرسان المماليك. ولئن كان المماليك حكام سوء، لقد كانوا- والحق يقال- أرباب حرب، وأبطال قتال.

وبلغ الجيش (بيسان) في رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة، وأراد أن ينحدر من أعالي الهضبة إلى (عين جالوت)، فوجد تحته السيل الذي جرف في طريقه كل شيء، من صحارى تركستان وأطراف الصين، إلى عين جالوت: جيش المغول والتتر، لما رأوا هاتيك الجموع، وذكروا كم اجتاحت في طريقها من جيوش كانت أجل وأعظم، فما صنعت مع هذه الجموع صنيعا، ولكن الشيخ قام يذكرهم ما ضمن لهم

(١) عبدالعزيز بن عبد السلام بن القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، عز الدين، الملقب بسلطان العلماء، فقيه شافعي، بلغ رتبة الاجتهاد، ولد ونشأ في دمشق (معجم الأعلام ص٤١٩).

مـن النصر، استنجـازا لوعد الله، واعتمادا علـى قوله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[١] فغلـى الدم فـي العروق، وضربـت الحماسة أقحـاف الرؤوس، ونـزل جيش مصر نزول الموت، يحـث جنده الخيل يتسابقون إلى النصر والشهادة.

وكانـت معركـة خاف فيهـا الخوف، وذعـر فيها الذعـر، وانجلت عن... ظفر المصريين.

يـا أيهـا السامعون! لقـد انهزم التتر الذين دكـوا في طريقهم كل قـوة، واخترقوا كل جيش، انهزموا أمام الإيمان الذي أزكاه في النفوس هذا الشيخ الدمشقي..»[٢].

وهكـذا بدت وجهة الطنطاوي الإسلامية عميقة وقوية، حيث جعل الإيمـان هو الذي انتصر في المعركة؛ لأنه هو الذي حول ضعف الجنود قـوة، وخوفهـم من الموت رغبـة فيه، وزعزعـة قلوبهم ثباتـا، وتراجع نفوسهـم إقداما، وهكذا يفعل الإيمان فـي القلوب ويصنع العجائب في الحياة.

ويبـدو انتماء الطنطاوي الفكري للإسـلام، واستمداده لقيمه منه فـي موضوعاتـه، كلما حاول أن يفيـد من قضايا التاريـخ بطرح ظلال الماضي لمعالجة ما يثار في الحاضر أو المستقبل.

---

(١) سورة محمد، الآية ٧.

(٢) شيخ من دمشق «رجال من التاريخ»، علي الطنطاوي، ٢/ ٨٥ - ٨٦.

ومن هنا رأيناه يطرح رأيه بوضوح في قضايا كانت مثارة -آنذاك- ولا تزال تطل برأسها بين الحين والآخر، كتعليم المرأة وعملها بالسياسة.. من خلال الواقع التاريخي للسيدة عائشة ﵂، وكذا سلطانة الهند[١].

يقول عن السيدة عائشة ﵂ «... وكانت عالمة؛ لأن العلم لا ينافي طبيعة المرأة، لم يمنعها كونها أنثى، من أن تكون فيه للذكور إماما.

ولكنها لما جاوزت حدها وخالفت طبعها، ودخلت غمار السياسة، التي يطالب بعض النساء اليوم بخوض غمارها، ولا أقول لكم ماذا صنعت، ولكن سلوا رحاب البصرة، كم حوى بطنها من جثث، سلوا الجمل المشؤوم، كم سال من جنباته من دم؟! سلوا تلك الأرواح فيم أزهقت؟! سلوا تلك الضحايا فيم ذهبت؟!

أنا لا أتهم السيدة.. بأنها هي المسؤولة قضائيا عن هذه الأرواح، ومن أنا حتى أتهم أم المؤمنين؟! بل أقول: إنها باشتغالها بما لم يخلقها الله له، ولا يدعوها الإسلام إليه جرى هذا كله. ونحن حين نكره للمرأة السياسة، لا نريد أن نستأثر دونها بمتعها، ولا أن ننفرد بخيراتها، بل نريد أن ننزهها عن أوضارها، ونبعدها عن نارها..»[٢].

فهو كما نراه قد ألقى برأيه في ظلال الماضي والتاريخ فيما أثير من قضايا معاصرة؛ ليكون رأيه أوقع في النفس وأقنع لها.

كما تبدو وجهة الطنطاوي الإسلامية عندما يحاول أن يربط بين

---

(١) السابق، ج ١ ص٣٣، ج٢، ص١١٨.

(٢) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي، ص٣٧.

المقدمـات والنتائج، محللا ومعللا؛ ليكشـف لنا الغموض الذي يكتنف بعض الشخصيات، أو الذي يفسر بعض المواقف.

فمـن إبرازه للمواقف وتفسيره لهـا، هذا الخبر الذي حاول فيه أن يكشـف عن السـر في سماحة علمائنـا الأوائل، وبركـة أعمالهم وكثرة مؤلفاتهم من خلال دلالة هذا الموقف الذي حدث «لأسد بن الفرات»[١] مـع أستاذه الإمام «محمـد تلميذ الإمام أبي حنيفـة»[٢] - رحمهم الله جميعًا. يقول:

«... وأمـا الإمام محمد فقد تصدر للتدريس وللبحث، وانتهت إليه رياسـة العلماء، حتـى كان من تلاميذه الإمام الشافعـي، أستاذ الإمام أحمـد، فلزمـه هذا الشـاب المغربي «أسـد بن الفرات» فـكان يحضر دروسـه العامة، ثم أحب أن يكون له درس خاص، يغرف فيه ما استطاع من علم الإمام محمد؛ ليحمله إلى بلده، درس خاص!»[٣].

هذا الخبر قد يمر على المستمع أو القارئ دون أن يلتفت إلى بعده أو ينتبـه إلى غرضـ المتكلم منه؛ لذا يقف الطنطـاوي مع الخبر ثانية فيعرضه عرضـاً واضحاً؛ مبرزاً عظمته ومفسراً طبيعته؛ ليجعله أعمق أثرا وأبقى في نفس المتلقي.

---

(١) أسـد بـن الفـرات بن سنان مولى بنـي سليم أبو عبد الله (١٤٢ - ٢١٣ هـ - ٧٥٩ - ٨٢٧ م)، قاضي القيروان وأحد القادة الفاتحين (معجم الأعلام، ص٩٧).

(٢) محمـد بـن الحسـن الشيباني مـن موالي بني شيبـان أبو عبـد الله (١٣١ - ١٨٩هـ) - ٧٤٨ - ٨٠٤م، إمام في الفقه والأصول، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة (معجم الأعلام، ص٦٩٣).

(٣) رجال من التاريخ، ١/ ٦٥، ٦٦.

قال: «انتبهوا - أرجوكم - وتأملوا الموقف.

أستاذ كبير له آلاف التلاميذ، وتجيئه كل يوم عشرات المسائل ليفتي فيها، يقدم عليه شاب غريب مجهول، فيسأل أن يقطع له من وقته الثمين حصة خاصة به، وماذا ترونه يقول له!؟ ماذا يصنع الأستاذ الكبير في إحدى جامعات الغرب اليوم، إن جاءه تلميذ شرقي، فطلب منه هذا الطلب، يطرده، أو يعتذر إليه بلطف، وإذا كان كريما جدا أعطاه ساعة في الشهر، أو في الأسبوع.

أما الإمام محمد، فقد أخذ هذا الشاب المغربي إلى بيته، وأعطاه غرفة بجنب غرفته، وكان يسهر معه الليل، يضع أمام التلميذ قدح ماء، فإذا نعس نضح وجهه ليصحو.

وما طلب منه أجرا، ولا سأله مالا، بل هو الذي كان يطعمه ويسقيه»[١].

بهذا العرض الرائع.. اتضحت عظمة الموقف، وبدت صورته العجيبة في الأذهان، التي قلما نجد لها مثيلاً في عصرنا الحاضر حتى لنتساءل: ما السر في هذا!؟.

ومن هنا يضع الطنطاوي تفسيراً شاملاً لهذا الموقف العظيم وأمثاله، ونتائجه وثماره في حياة أسلافنا الأوائل، وذلك بقوله:

«ذلك لأن العلم كان في رأي أسلافنا الأولين عبادة، وكان قربة

(١) السابق، ج١، ص٦٦.

إلى الله، فالطالب يطلب العلم لله، لا للشهادة ولا للدنيا، والأستاذ يعلم العلم لله، لا للمرتب ولا للمنصب.

ومن ذلك أيها السادة - ظهر في تاريخنا أولئك الأئمة والأعلام، الذين كانوا منار الهدى، وكانوا أساتذة الأرض، وألفوا هذه المؤلفات الكبار التي لا نقدر نحن اليوم على قراءتها، فضلا عن نسخها، فضلا عن تأليف مثلها..»[١].

وهكذا يتضح السر في عظمة هؤلاء الأئمة ومواقفهم الخالدة، الذي لا يمكن أن يكون في غير ما ذكره الطنطاوي من سماحة نفوسهم، وعلو همتهم، وإخلاصهم لله وعملهم على مرضاته.

وأما عن ربطه النتائج بالأسباب، فمنها عرضه للأسباب التي أدت إلى ضياع الأندلس وانهيار آخر إمارة فيها؛ لتكون من ذلك العبرة التي تولد الوعي والحذر.

يقول: «... أتعرفون من أين جاءت هذه الإمارة التي كتب الله أن يكون ضياع الأندلس على أيديها؟ كانت دولة الموحدين تحكم البلاد كلها، والموحدون صحراويون أشداء، لم تكن الحضارة بترفها قد أفسدتهم يوم أقبلوا، ولا المدن بنعيمها، فكانوا ينامون بمثل عين الذئب، ويكشرون عن مثل أنياب الأسد، كانوا أسود قفر، فانجحرت منهم الذئاب وفرت من أمامهم.

(١) السابق، ٦٦/١، ٦٧.

فلمـا ذاقوا متع الحضارة، واستراحوا إلى النعيم صاروا طواويس، فاستأسدت من ضعفهم الثعالب.

وخرج عليهم (ابن هود)[١] فاقتطع لنفسه ما استطاع من بلادهم، وخرج على ابن هود ابن الأحمر، فانتزع منه ما قدر عليه من بلاده، وكان الموحدون في الأصل خارجين على الإمامة العظمى، فكانت مملكة بني الأحمر هذه، مملكة خوارج على خوارج على خوارج!.

ولـم ينج ابن الأحمر مـن أمراء كانوا أصغر منـه، فخرجوا عليه، يشتـرون منـه ملكه برأس ماله، وكان يحميهـم الأسبـان الذين كانوا يمدون أيديهم أبدا من وراء ستار، فيضرمون هذه النار، فلم يجد وسيلة لاستبقـاء لذة الحكـم، إلا أن يبيع نفسه للشيطـان، ويخضع للأسبان، ويجعل مـن نفسه ملكا على المسلمين، وتابعا لأعدائهم، وكذلك يصنع حب السلطان!.

وهذه مصيبتنا دائما الانقسام وشهوة الحكم!»[٢].

فالطنطـاوي - كما نـرى - عرض لأسباب الضعـف التي دبت في دولـة الموحدين حتى قضت عليها، وهي أسباب عامة، لا تدخل إلا من أبـواب الهلاك التي يفتحها الحكام بأيديهم. باب الترف والنعيم الذي يـؤدي إلى إيثار الراحة والركون إلى الكسـل والخمول ولو كان في ذلك

(١) سليمان بن محمد بن هود بن عبد الله بن موسى مولى أبي حذيفة الجذامي، أبو أيوب، ت ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م، مؤسس دولة آل هود من ملوك الطوائف في الأندلس (معجم الأعلام، ص٣١٧).

(٢) رجال من التاريخ، ج٢، ص٤٩.

الذل والهوان وضياع كيان الأمة. وباب الخلاف والانقسام الذي يضعف القوي ويقتل الضعيف.

باب موالاة الأعداء والبقاء على مودتهم وإرضائهم، لتحقيق أطماع لا توجد إلا في الوهم والخيال.

وكل هذا مما حذرنا الله منه ونهانا عنه. فقال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾[٣].

فجاءت هذه الترجمة لتحمل من العبرة ما يؤكد هذه المعاني، ويثبتها في الأذهان من خلال واقع تاريخي صادق، أحياه بأسلوبه وجسَّده بخياله.

وبهذا يتبين أن للتوجيه نحو التاريخ دوراً عظيماً في عملية التربية الإبداعية والفكرية والأخلاقية، هذا الدور يتمثل في أن التاريخ يعكس البيئة التي خرج فيها الإسلام ونهض، ويرصد هذا النهوض ومقوماته، ويقدم النماذج المشرقة التي كان الأدب الإسلامي في فترة من فترات

---

(١) سورة الحج: آية ٤٥.

(٢) سورة آل عمران من الآية ١٠٣.

(٣) سورة آل عمران من الآية ٧٣.

تطـوره - منذ بدايات الدعـوة إليه في القرن الماضـي - يحتاج إليها؛ ليكوِّن لديه رصيدا وجدانيا للأديب والمتلقي على السواء، ومنطلقا نحو أدب إسلامي عميق الأصول[١].

كمـا يتضـح دور الطنطاوي الفاعل فـي تناول التاريـخ باستلهامه عبـره، واستخلاصه دروسـه؛ منتهجا في ذلك نهـج المربي المخلص الذي يركز على ما يفيد به الحاضر، ويتطلع به إلى إصلاح المستقبل.

ومع أن هدف الطنطاوي في موضوعاته واضح، وفكره فيها متزن، إلا أن د/ عبـد الله بن صالح المسعود، قد تعجب من إشادة الطنطاوي بالمعتزلة وإمامهم فـي معرض ترجمته للإمام أحمد ناصر السنة[٢]. وأخذ عليه ذلك، كمـا أخذ عليه تهاونه بالمسألة التي دارت حولها تلك الفتنة، وهي «خلق القرآن»[٣].

وعند التأمل تتضح وجهة الطنطاوي في ذلك بما يبطل العجب؛ إذ إن الطنطـاوي يقول الحق كما يعتقده، وهو سلفي لا يدعو إلى الاعتزال حيـن يشيـد بمذهبهم، ولكنه يشيـر - بهذه الإشادة - إلـى جهودهم في خدمـة الإسلام فـي عهد أبرزت فيه سقطاتهم وغمـط فضلهم، مع أن ظهـور المعتزلة بمنحاهم العقلي - وقتئـذ - كان ضرورة واكبت دخول

(١) الأدب الإسلامـي «علـي الطنطاوي بين الإبداع والتنظير» ياسـر محمد غريب، ص٨١، العددان (٣٤-٣٥) ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

(٢) رجال من التاريخ «ناصر السنة» علي الطنطاوي، ١/ ١٣٢.

(٣) الأدب الإسلامي «من سمات السيرة عند الشيخ علي الطنطاوي في كتابه (رجال من التاريخ)»، د/عبدالله بن صالح المسعود، ص٥١ العددان (٣٤-٣٥).

العجـم والوثنيين والشعوبيين في الإسلام مـع شبههم الكثيرة التي لم تنثن إلا بالحجة والإقناع العقلي الذي برع فيه هؤلاء.

ويكفـي في ذلك ما ذكره أبو القاسم البلخي المتوفى سنة ٢٩١هـ-٩٣١م فـي كتابه مقالات الإسلاميين، حيث ذكر أبوالحسن بن فرزويه أن قوما من السمنية أتوا جهم بن صفوان، فقالوا له:

هل يخرج المعروف - يعنون المعرفة - عن المشاعر الخمسة؟

قال: لا.

قالـوا: فإذا كان المعروف لا يخرج عن ذلك، وليس معبودك منها، فقد دخل في المجهول!.

فسكـت جهم؛ لأنـه يؤمن أن الله لا تدركـه المشاعر الخمسة التي تقـوم عليها المعرفة في اعتقادهم. ولكنه كتب بما حدث إلى واصل بن عطاء، فأجابه بقوله:

إن المعـروف - يعنـي المعرفة - لا يخرج عـن المشاعر الخمسة، وعـن الدليـل.. فارجـع إليهـم الآن، وقل لهـم: هل تفرقـون بين الحي والميـت، وبيـن العاقل والمجنـون؟ فإنهم يعترفون بذلـك، وأنه يعرف بالدليل، لا بغيره!.

فلما رجع إليهم بذلك، قالوا له:

ليس هذا من كلامك، فمن أين لك؟

قال: كتبت به إلى رجل من العلماء بالبصرة يقال له: واصل، فخرجوا إليه، وكلموه، ثم أجابوه إلى الإسلام»[١].

ومن ثم فإشادة الطنطاوي بالمعتزلة - خاصة - في هذا الموطن الذي يعرض فيه لزلتهم الكبرى مع الإمام أحمد رضي الله عنه يكون دفعا لما يوهمه الحديث من غمط لحقهم وإنكار لجهدهم في خدمة الإسلام لو خلا الكلام من ذلك؛ إذ إن ما في الشيء من عيب لا ينبغي أن يصرفنا عن الاعتراف بخيره، والانتفاع به، وهذا بلا شك اتجاه محمود.

أما عن قول الطنطاوي: «المسألة التي صارت مدار الخلاف، وهي مسألة لا تستحق هذه العناية وليست من أركان الدين، ولا أمرنا الله بها، ولا يسألنا يوم القيامة عنها وهي: هل القرآن مخلوق أم لا؟»[٢].

فهذا الكلام نراه حقا في عصرنا - بعد موت الفتنة - إذ إن انشغال الذهن وتضييع العمر في الأخذ والرد بهذه المسائل المتصلة بالغيب مما قد يضر بالعقيدة.

وما أروع قول الطنطاوي! حين يوضح هذا الأمر بقوله: «وأنا أدعو إلى شيء جديد.. شيء هو أقرب إلى الحق، وهو أنفع لنا، هو أن ننقل الموضوع من جدال في صفات الله، إلى سلوك في الحياة يصل إلى رضاه، فبدلا من أن نبحث (بحثا غير منتج) في القرآن: هل هو مخلوق، أم غير مخلوق؟ نقول: إن القرآن أنزله الله لنعمل به، فلنعمل به، ونأتمر

(١) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص ٥٢، ٥٣.
(٢) رجال من التاريخ «ناصر السنة»، ص ١٣٢.

بأمـره، ولنقف عند نهيه. وبـدلاً من البحث في علم الله، وهل هو بذاته أم بصفـة زائدة على الـذات؟ نقول: إذا كان الله يعلم عنا كل شيء من سرنـا وجهرنا، وانفرادنا واجتماعنا، فيجب أن نسلك في الحياة سلوكا موافقا لشرع ربنا، حتى يعلم عنا ما يرضيه علينا.

هذا هو الحق، وما مثل من يصنع هذا ومثل من يجادل في صفات الله، إلا كمثـل طلاب المدرسة، الذين يقال لهم: إنها ستأتي لجنة عليا مـن الوزارة تتولى هـي امتحانكم، فالعاقل منهم يقـول: إذا كانت هذه اللجنـة ستتولى الامتحان، فينبغي أن أستعد وأدرس ولا أدع من المنهج المقـرر شيئا لا أحفظـه، والأحمق يجادل في هـذه اللجنة، كيف يكون امتحانها، هل تتولاه كلها أم أفراد منها، وهل عددها (شفع) أم (وتر) وهـل تجـيء بالسيارة أم بالطيارة؟ ولا يزال في هـذا وشبهه حتى يأتي يوم الامتحان، وهو لم يعد له شيئاً.

إن الله لا يسألنـا يـوم القيامة عن شيء مما بنـى عليه المتكلمون جدالهـم، وأقامـوا عليه مختلـف مذاهبهم، وملؤوا بـه كتبهم. ولو كان ذلك من شروط الإيمان لبحث فيه رسول الله ﷺ وأصحابه...»[١].

فهذا كلام جيد، ويؤكده ما أخرجه الدارقطني من حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعاً: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها»[٢].

---

(١) تعريف عام بدين الإسلام، علي الطنطاوي، ص٨٠، ٨١.

(٢) قـال الحافـظ ابن حجـر في «فتح البـاري» ولهـذا الحديث شاهد مـن حديث سلمـان أخرجه الترمذي، وآخر من حديث ابن عباس أخرجه أبو داود، ج١٣، ص٢٨٠، ط المكتبة السلفية.

لكنــي أعتقــد أنه لم يكن ليكفــي هذا (يومئــذ)؛ لأن الفتنة كانت مشتعلــة، والشبهــة قائمة، والقضيــة مثارة، ولابــد أن تفصل؛ لانشغال الأذهــان بهــا، ولأن الناســ ينتظرون، والطــلاب سيكتبــون، مما جعل الأمــر مهمًّا، والكلام فيه واجبا، وكل هذا مما يبرز موقف الإمام أحمد ويضخم من إحساسه بالمسؤوليــة؛ لتأخذ المسألة تلك الأهمية، والتي لم ينكر أحد دور الإمام أحمد - رحمه الله - فيها.

obeikandl.com

المبحث الرابع

موضوعات الطنطاوي وأفكاره في مقالاته

الموضوعات والأفكار في مقالات الطنطاوي

المقال الديني:

يلاحظ في موضوعات الطنطاوي التي تناولها في مقالاته سيطرة الروح الإسلامية، ففي مقالاته التي تكلم فيها عن الإسلام نراه مستجيباً لرؤيته الإسلامية في تناوله له من منظور إسلامي خالص، باعتباره الدين الحق الذي أنزله الله لسعادة الناس جميعاً في كل زمان ومكان؛ حين يتمسكون به، ويستفيدون منه، ويهتدون بتعاليمه في كل شؤون الحياة.

ومن هنا لم ينحرف يوماً كالعلمانيين الذين يرون الدين قديما باليا، لا يصلح لمواكبة العصر، ولا لمعالجة شؤون الحياة، ولم يشذ كالشيوعيين الذين يرون الدين وهماً أو مخدراً للشعوب! بل كان دائما وأبداً يجزم بصدق هذا الدين وحقيقته، ويبرز جدته، وشموليته وصلاحيته لقيادة العالم وتحقيق سعادته، وتخليصه من شقائه وأمراضه؛ ولذا نراه يتعجب من عدم قيامنا به، واستجابتنا له متسائلا ومجيباً في حوار يغزو النفس، ويشعرنا بانفعاله، وعمق إيمانه، وإحساسه بعظمة الإسلام ومنهجه. يقول:

«أكان ذلك لأن الذي ندعو إليه باطل؟

هذا محال؛ لأن الإسلام صيغ من جوهر الحق، لا من أعراض الأوهام.

أم كان لأن الإسلام بليت حقائقه، فلم تعد تقوى على مواجهة الخطوب في عصر تفجير الذرة، واقتحام الفضاء؟ كلا. فالإسلام كان جديداً لما جاء، وبقي جديداً لا يبلى ولا يقدم إلا في الأذهان التي تعجز أو تكسل، أو تزهد في كشف أسرار القرآن التي لا تنفد على مر الزمان، ولا تزال أبداً يفيض نبعها لمن يعرف طريق الاستقاء منها، ولا يزال الذهن البشري يكشف في كل عصر من هذه الأسرار ما لم يكشفه السابقون.

لقد أظهر تقدم العلوم في أيامنا معاني آيات كانت في خفاء، وكان المفسرون يحاولون إدراكها فيحومون، ولا يصلون. ولا تزال في القرآن آيات فيها إشارات، وتلميحات لأسرار سنن الله في الوجود، وقوانين في الطبيعة لم يصعد العلم بعد إلى الذروة التي سيكشفها منها، وهذا من الأدلة على أن القرآن كتاب لم يخرج من فكر بشري؛ لأنه يستحيل على الإنسان مهما كان عبقرياً أن يشير إلى علوم لم تكن في أيامه، ولا بعد أيامه بألف سنة، من عرفها أو سمع بها، أو قدر وجودها.

كلا - أقولها مرة ثانية - فالإسلام كان صالحاً لعصر محمد وصحبه، وبقي صالحاً في عصر الذرة والصاروخ ومركبات القمر، وسيبقى صالحاً، وسيبقى دستور الحق والخير، والجمال، وطريق سعادة الجسم، والعقل، والروح في كل عصر»[١].

(١) فكروا: لماذا؟ فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ص ٢٠٤،٢٠٣.

ويبــرز توجه الطنطاوي الإسلامي من خــلال نظرته إلى العبادات باعتبارهــا ركائز الإســلام، وتعاليمه السامية، وتناولــه لها بما يوضح مظاهر العظمة فيها، ويبين جوانبها الروحية المشرقة في سبيل الشعور بأهميتها، وقيمتها، والوصول بالمسلمين إلى تعظيمها، والتمسك بها.

ففــي مقالتــه «الله أكبــر»[١] نراه يحــاول أن يستجلــي حقيقة هذه الكلمــة، حين تمثل شعــاراً إسلامياً يثير في المسلــم خواطر تجتث كل مــا في نفسه من معاني الخوف، والقلق، والرهبة، والفزع؛ لتستبدل بها الأمن، والقوة، والثبات بالله الكبير المتعال. حيث يقول:

«وإذا اصطــف المسلمــون للقتــال، ورأوا جيش العــدو كبيراً، كثير العدد ذكروا أنهم مع الله، وأن الله أكبر.

الله أكبــر.. كــم هتف بها المسلمــون في معاركهــم فارتجت منها الأرض، وتزعزت منها الحصون، وانتزعوا بهــا النصر من فم العدو، وأزاحوا بها التيجان من رؤوس الجبارين...»[٢].

ويبــرز توجه الطنطــاوي الإسلامي من خلال موقفــه الواضح من الدعوات الحديثــة، والشعارات التي تخدع الكثيريــن، وتستهويهم دون وعي لمدلولها الذي يستهدف هدم القيم، والنيل من الإسلام.

مــن ذلك مقالته «ما هي التقدمية»[٣] التي يستجلي فيها دلالة هذا

(١) مقالات في كلمات، علي الطنطاوي، ٢/ ٢٢٧.

(٢) مقالات في كلمات، ٢/ ٢٢٧، ٢٢٨.

(٣) مقالات في كلمات، ١/ ١١٩

اللفـظ البـرّاق «تقدمي» والذي يحمـل في طواياه خبثـاً شديداً، يستتر أتباعه بجمال لفظه عن حقيقة معناه ودلالته. إذ يقول:

«وهل كل جديد خير من كل قديم؟

إن أقدم شيء في الدنيا هو العقل فإذا تركنا الدين وصرنا ملحدين ـ لأن الديـن قديم ـ فيجـب أن نترك العقل ونصيـر مجانين؛ لأن العقل أقدم من الدين!.

فمـا معنى التقدمية إذن؟ أخشى أن يكـون معناها تقليد الغربيين فـي الخير والشر، فإذا كشفوا العـورات كان سترها رجعية، وإن أعلنوا الزنا كان إعلانه تقدمية، وإن لبسوا «البنطالون» من فوق، و«الجاكيت» من تحت، أو قعدوا على الأرض، ووضعوا الكراسي على رؤوسهم، وأكلوا الحسـاء «الشوربـة» بالشوكة، والبطيخ بالملعقـة؛ فقد وجب في شرعة التقدميـة أن نصنـع مثلمـا صنعوا، وإلا كنـا رجعييـن!... إن كان هذا هو المـراد بالتقدمية فتجمّعوا، وتشجّعوا وقولـوا، وأريحونا، ولا تدعوه يطالعنا من خلال السطور، ومن بين الكلمات..»[١].

ولـم يكتف الطنطاوي بكشـف زيف الشعارات، بـل كان يحذر من البـدع، ويثـور على الانحرافـات، ويكشـف الضلالات، كما فـي مقالته «تعقيب»[٢]، التي يكشف فيها عن أصل البدع المنتشرة بين الناس: من

(١) السابق، ١/ ١٢٠.

(٢) فصول إسلامية، ص١٨١.

التبرك بالقبور، والتوسل بأصحابها، إلى انصراف الشباب عن الدين، وتوهم قصوره عن مواكبة أحداث العصر، ومخاطر ذلك؛ ليقدم العلاج المناسب لهذا الزخم الذي عكر صفو الحياة الإسلامية من خلال الواقع العملي لا الخيال والأماني، ويلخصه في النهاية بقوله:

«وملاك الأمر تعريف الشباب بالإسلام، وترجمة كتبه إلى لسانهم؛ لأن الإسلام في ذاته قوة هائلة، سره فيه، وفيه دلائله، فمن عرفه على حقيقته، لم يستطع إلا أن يكون مسلماً، فإذا كان العلماء حريصين حقاً على ازدهاره، وعودة أهله إليه، ورجوع الأمة الإسلامية إلى مجدها فهذا هو الطريق..»[1].

المقال الاجتماعي:

يبرز اتجاه الطنطاوي الإسلامي من خلال رؤيته المتزنة بميزان الإسلام في حل قضايا المجتمع، ومعالجة مشكلاته عن رغبة في إعادة توازن المجتمع ورد كل شيء إلى أصله الإسلامي الذي انحرف عنه.

فالطنطاوي إسلامي في نظرته إلى المرأة؛ حيث لم يجعل منها دمية في يد الرجل يستمتع بها، ثم يحطمها وقت ما يشاء، ولا يرضى لها أن تترك أنوثتها؛ لتصارع الرجال في ميدان الأعمال وتحمل الأعباء التي تعرضها للمهانة والشقاء، وتحملها فوق حملها الثقيل حملاً يسوقها إلى فقد ذاتها ونسيان نوعها.

---

(١) السابق، ص ١٨٦.

بـل يسعى بها لتكون ملكة متوجة في بيتها، تتعلم ما يصلحها لبيت زوجها، ورعاية أولادها؛ لتجد سعادتها الحقيقية، وتحقق ذاتها، وتشعر بدورها في صنع المجتمع، وتربية الأجيال. يقول:

«والبنـت مهما بلغت من المنزلـة والغنى، والشهرة والجاه، لا تجد البنت أملها الأكبر، وسعادتها إلا في الزواج، في أن تكون زوجاً صالحة، وأمـاً موقرة، وربة بيـت. سواء في ذلك الملـكات والأميرات، وممثلات هوليـود ذوات الشهـرة والبريق الـذي يخدع كثيرات مـن النساء!. وأنا أعـرف أديبتين كبيرتين فـي مصر، والشام، أديبتيـن حقاً، جمع لهما المـال، والمجد الأدبي، ولكنهمـا فقدتا الزوج، ففقدتـا العقل وصارتا مجنونتين، ولا تحرجيني بسؤالي عن الأسماء فإنها معروفة..»[١].

كمـا تتضح وجهـة الطنطـاوي الإسلاميـة من خـلال نظرته إلى الشبـاب، واهتمامه بقضايـاه، ومشاركته له في عواطفـه، واهتماماته وآمالـه، باعتباره طاقة المجتمع، وأداته نحـو التحضر، ومستقبله نحو النهوض والإصلاح حين يُبنى بناءً قوياً، ويوجّه توجيهاً إسلامياً فاعلاً، منتجـاً، بعيداً عن لوثات الفكر، وخور العزائـم، واضطراب العواطف. ومن هنا يقول:

«الشباب يا سادتي، الواحة الفريدة في صحراء الحياة، وهو الربيع في سنة العمر، هو البسمة الوامضة على ثغر الزمان القاطب.

(١) يا ابنتي صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص١٥١.

لست أعني هذا الشباب الغض الغريض، الحلو الناعم، الذي يجرح خديه لمس النسيم، ويدمي بنانه مس الحرير، والذي ترق عنده الحياة، حتى تسيل من العيون نظرات ساحرة مغرية، وتدق جلائل الأعمال فيها حتى يستحيل إلى فكرة تطير كالفراشة بين أزهار الجمال في روضة الحب، أو نسمة معطرة تهب من حواشي فتاة فتانة، أو قبلة فيها خمر، وعسل تجمع لذائذ الدنيا في رشفة مسكرة.

لست أعني هذا الشباب الفاتن المتأنث الذي يعيش للهوى، والأحلام، ويبدأ تاريخ حياته بالحاء (ح)؛ فلا يلبث أن ينتهي بالباء (ب)...

إنما أعني الشباب الحي، العامل، القوي، المتين، الذي وضع له غاية في العيش أبعد من العيش، ونظم نفسه حلقة في سلسلة شعبه، واتخذ له مطمحاً، ومثلاً عالياً ثم عمل على بلوغه، وسعى إليه باندفاع الصواعق المنقضة، وقوة العواصف العاتية، وثبات الطبيعة، وألقى في سفر حياته الراء بين الحاء، والباء! وهل الحياة إلا حرب دائمة، ونضال مستمر، وتنازع على البقاء، وتسابق إلى العلاء..»[1].

وتتضح وجهة المصلح الاجتماعي، من خلال نظراته إلى التعليم، والمناهج، باعتبارها أهم شيء في إحداث الرقي والتطور. والطنطاوي ظل حريصاً على تطوير المناهج - وخاصة الدينية - والإشادة بها داعياً إلى تكثيفها، وتطويرها، على نحو ما يقول:

(١) «المثل الأعلى للشباب» فصول إسلامية، ص٤٢،٤١.

«... وحين يطّلع هؤلاء التقدميون الذين ربّاهم الأجانب على اعتبار الإسلام (بعبعا) مخيفاً، وشيئاً عنيفاً رجعياً، حين يطلعون على الإسلام الحقيقي، لا الإسلام الذي صوره لهم بعض المشايخ، أو رأوه في بعض الكتب المتأخرة، يسعون هم أنفسهم إلى تعلم علوم الإسلام، ويسعى إليه النصارى للعلم لا للدين، ومن لم يصدّق، فليسأل الأستاذ الكبير (فارس بك الخوري)[١] عن قيمة الثقافة الإسلامية وعن أثر القرآن في الفصاحة، والبيان»[٢].

وتتضح وجهة الطنطاوي الإسلامية في موضوعاته وأفكاره، من خلال اهتمامه بالإنسان في مراحل حياته المختلفة، وتقديمه له ما يتناسب مع كل مرحلة من مراحل عمره، فهو كما تكلم عنه شاباً، ورجلاً، لم يهمله طفلاً، بل قدم له الكثير من التوجيهات والآراء التربوية التي تخصه، فقد أوصى برعاية الأطفال، وحمايتهم من التشرد حتى لا يكونوا مجرمين في المستقبل، وحذّرهم مما يفسد أخلاقهم، من المجلات والقصص المترجمة، والمقتبسة، وطالب بثقافة الأطفال الإسلامية التي تربي فيهم الجد، والشجاعة، وتبث فيهم الطموح، والفضيلة ضارباً من نفسه المثل، بما قدمه لهم من قصص كان محورها الأساسي التوجيه، والتهذيب والتربية الإسلامية بأسلوب أدبي سهل ورشيق[٣].

---

(١) فارس بن يعقوب الخوري (١٢٩٠-١٣٨١هـ) = (١٨٧٣-١٩٦٢م)، من رجال السياسة والأدب في سوريا (معجم الأعلام ص٥٨٤).

(٢) «دروس الديانة في المدارس» فصول إسلامية، ص ٢٦٣، ٢٦٤.

(٣) الأدب الإسلامي «الشيخ علي الطنطاوي مربياً إسلامياً» أحمد حسن الخميسي ص ١١٦، ١١٧، العددان (٣٤ – ٣٥).

والطنطاوي إسلامي، حين يعالج مشكلة الفقر، بما طرحه الإسلام من تفعيل دور الرابطة الأسرية التي يتحمل فيها الغني أعباء قريبه الفقير العاجز عن الكسب، انطلاقاً من أن من يرث قريبه إذا مات، ينفق عليه إذا عجز أو افتقر، مشيداً بهذا الحل الذي قدمه الإسلام في باب النفقات والتضامن الاجتماعي[١].

وهو إسلامي - أيضًا - حين يدعو إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، وتقريب الفوارق الطبقية؛ إذ لم يدع إلى ذلك عن طريق الثورة على الأغنياء، أو استباحة أموالهم، وإنما دعا إلى ذلك من منطلق الرؤية الإسلامية التي تحض الغني على الإحسان إلى الفقير، وإطفاء نار حرمانه بِذَنوب من عطفه وإحسانه؛ ليضمن بذلك سعادة الدارين، والعيش الهانئ الآمن من ثورة الفقير، وتمرده. يقول:

«ولسنا والله شيوعيين ولا اشتراكيين، ولا يرانا الله ندعو إلى هذه (اللعنة الحمراء)، ولا نؤلب الناس بعضهم على بعض، ولكنا ندعو إلى الشعور الذي لا يكون الإنسان إلا به إنساناً، والإحسان هو شعبة من شعب دين الإسلام...».

فمن اختار من الأغنياء وأرباب المرتبات الضخام ألا يكون إنساناً، ولا مسلماً، فليفعل، فإن في جهنم مثوى ومتسعاً للمتكبرين»[٢].

---

(١) مقالات في كلمات، ٢/ ٢٣٩.

(٢) في سبيل الإصلاح، ص١١٩.

المقال السياسي:

لا نخطئ القول إذا قلنا: إن الطنطاوي إسلامي في رؤيته السياسية؛ إذ يرى أن السياسة لا ترتجل، بل لها ضوابط وقيود إسلامية تحميها من الشطط، وتعصمها من الطغيان والإفساد، فالسياسة عنده ليست منفلتة أو منفصلة عن الدين، وليست ألاعيب وحيلاً وصراعاً على الكسب والربح من أي سبيل، وليست غاية تبرر الوسيلة كما يرى أصحاب الرؤى المنحرفة.

ومن هنا يؤكد ـ دائماً ـ: «أن الفرق بين الإسلام وغيره أنه دين، وسياسة، وعلم، وتشريع في الوقت نفسه. فهل يعاب الإسلام بهذا؟ والذي يقول: إن السياسة أو الحقوق ليست من الإسلام فعليه أن يمحو من القرآن براءة، والأنفال، ومئات الآيات التي تبحث في الأحكام، والتي أفردها (الجصاص)[١] وغيره من العلماء بالتأليف فيها»[٢].

ومن ثمّ كان يرى أن الإصلاح السياسي، والاجتماعي لن يكون أبداً بسن القوانين، وتشديد العقوبات، بقدر ما يكون برد الناس إلى الدين، وتقوية شعورهم، وتهذيبهم من خلاله.

فيقول مخاطباً الحكام، والساسة: «... واعملوا على ردّ الناس إلى الدين فإنه لا يدفع هذه الشرور، ولا يدرأ هذه المفاسد، ولا يمنع هذا الفساد إلا الدين.

---

(١) أحمد بن علي الرازي، أبو بكر الجصاص ٣٠٥ – ٣٧٠ هـ/ ٩١٧ – ٩٨٠م، (معجم الأعلام، ص٥٤).

(٢) من مقالة «الدين والسياسة» مقالات في كلمات، ٢٢١/١.

إن الـذي يخاف القانون وحده، يخافه ما بقي الشرطي واقفاً، فإن ذهـب الشرطـي رتع الرجل. فهـل تستطيعون أن تقيمـوا على كل رجل شرطيـاً يراقبـه؟ وإذا كان الشرطـي نفسـه يحتـاج هو - أيضـاً - إلى مراقـب؟ أما الـذي يخـاف الله فإنه يعلم أنـه يراه دائمـا، وأنه مطلع عليـه فـي سره وجهره، وهو معـه أينما كان، فيمنعـه خوفه من الله من أن يسـرق،أو يزني، أو يظلم أحـداً، أو يعتدي على أحد، وها أنتم هؤلاء جربتم ترك الدين، والبعد عنه، والزهد فيه فماذا وجدتم؟»[1].

فالطنطاوي بذلك يبين الطريق للحاكم، أو السياسي المسلم الذي يريـد أن ينقاد لـه المجتمع، ويرغب فـي إصلاحه واستقامتـه؛ مؤكداً أن ذلـك الطريـق هو طريـق الله في شرعه الحكيـم؛ لأن الحاكم حين يستمـد أحكامه من شرع الله سيجد استجابة، وسيرى طاعة، وانقياداً، وانتمـاءً؛ لأن الشعـب المسلم حيـن ذاك سيرى أن فـي طاعته للحاكم طاعـة لله، وفي انتمائه له انتماء للديـن، وبذلك تتحقق رغباته، وتثمر نظمه، وتجـدي توجهاته الإصلاحية؛ لأنها تقـوّت بالشرع، وهيمنت به على النفوس.

أما حين يبتعد الحاكم عن منهج الله؛ فإنه بذلك سيفقد تلك القوة الهائلـة التـي يمكنها الشرع له فـي اقتياد النفوس وانتمائها؛ فتصبح قراراته، وتصير نظمه وقوانينـه موضع الريب، ومحل التهرب والتمرد مهما حاول فرضهـا بالقمع والعقوبات، كما هو الحال - مثلا - في تهرب

(١) من مقالة «أساس الإصلاح»، مقالات في كلمات، ١١٧/٢.

الناس من الضرائب التي فرضها الحاكم، وسرعة استجابتهم في إخراج الزكاة التي فرضها الله تعالى.

كما نبّه الطنطاوي الحكومات إلى ضرورة نشر الدين، وتعميق أثره في النفوس، خاصة بعدما تأكد للجميع بالنظر والتجربة أن ما يحدثه الدين في النفوس من التقويم والإصلاح لا يمكن أن يحدثه غيره من قوانين وعقوبات، ودليل ذلك قائم في كل نفس؛ إذ يستشعر المسلم الذنب، ويتملكه الخوف إذا علم أنه خارج على أمر الله، كما لا يمكنه التصريح بخروجه عليه، بخلاف خروجه على أمر غيره، وعدم اكتراثه بذلك.

المقال الوطني:

تبدو إسلامية الطنطاوي من خلال طرحه لفكرة الوطن الإسلامي الكبير الذي تزول فيه الحدود، وتمزق فيه القيود. ومن هنا كان كثير الدعوة في موضوعاته الوطنية إلى الربط بين أقطاره، وتحقيق وحدته، باعتباره وطناً واحداً يجمعه دين واحد، وشعور واحد، ومصير واحد.

يعبر عن هذا الشعور بقوله: «أما إنني إن أحببت مصر؛ لأن منها أصلي، وأحببت الشام؛ لأن فيها مولدي، وأحببت الحجاز لأن إليها قبلتي، فإني أحب العراق؛ لأن فيها أجمل ذكرى الماضي، وأحب كل بلد يقول أهله: لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ لأنه بلدي، وأهله أهلي..»[١].

(١) «من دمشق إلى بغداد»، بغداد مشاهدات وذكريات علي الطنطاوي، ص٣٢.

ويثور على قبولنا تجزئة الوطن الإسلامي، والفصل بين أقطاره بهذه الحدود، التي صنعها المستعمرون لإضعاف شوكة المسلمين، والانفراد بمن يريدون منهم، بقوله:

«وهل كل من حمل شارب الرجل ولبس لباسه كان رجلاً؟ لو كان هؤلاء كلهم رجالاً، فهل كان يمكن أن تبقى بلاد العرب إلى اليوم مجزأة مقطعة تفصل بينها حدود، يطؤها الأجنبي ويتحكم فيها، ويستغلها، ويستعبد أبناءها..!؟»[١].

كما تعجب الطنطاوي من عدم قيام الوحدة الإسلامية التي أصبحت حلماً، وأملاً برغم توافر مقوماتها لدينا! فقال:

«اعقلوا يا ناس! فإن الألماني يدخل فرنسا، وإن الفرنسي يلج ألمانيا، فلا يمشي فيها ساعة حتى يرى كل شيء قد تبدل فلا اللغة باللغة، ولا العادات بالعادات، ولا الوجوه بالوجوه، أما العربي!.. أما أنا في بغداد.. ماذا تغيّر عليّ؟ أليس ماضي بغداد ماضيّ؟ وحاضرها حاضري؟ أليس الرشيد خليفتي؟ والوحدة، والعزة أملي..؟»[٢].

ومن هنا فقد برئت موضوعات الطنطاوي وأفكاره من العصبية، والقومية، فكتب في قضايا العالم الإسلامي بشعور إسلامي واحد، مرشداً، ومناقشاً، وموجهاً، ومسانداً، يدفعه حبه للإسلام، وأخوّته

(١) «رجل في ملابس النساء»، في سبيل الإصلاح، ص٤١.
(٢) بغداد مشاهدات وذكريات، ص١٤١.

للمسلمين إلى النصح السديد، والرأي الرشيد الموافق للإسلام. يقول في مقالته «عودوا إلى محمد» التي كتبها في ذكرى مولده ﷺ:

«هـذا يوم مولـد محمد! فيا أيها العرب جميعـاً من مسلمين، ومن نصارى، من شاء منكم أن يعرف فضل محمد على العرب، فليفكر أين كان العرب في التاريخ لولا محمد!؟

أي ثقافـة كانت لهم!؟ وجمـاع ثقافتهم هذا الشعر: شعر بدوي في أغراض البدو، وصور البادية؟

أي عـز كان لهم، وملكهم فـي العراق مدير ناحية في دولة كسرى، وملكهم في الشام عامل في مملكة قيصر!؟

أي جامعـة كانت لهم؟ وهـم أشتات لا تربطهم أخـوة العروبة، بل تجمعهـم رابطة القبيلة، وكانـوا مختلفين أبداً: اليمـن تعادي عدنان، وبكر تحارب تغلب، وعبس تناوئ ذبيان، وكان أمرهم فوضى، لا شرعة إلا شرعـة القوة، ولا حكم إلا حكم السيف، وكانوا قابعين وراء رمالهم، قانعيـن بسـوء حالهـم، وبلاغـة مقالهم، على طيـب العنصـر، ونقاء الجوهر.

فمن الـذي بدلهم تبديلاً بين عشية وضحاها، حتى كأن قد خلقوا به خلقاً آخر؟ من صنع من انقسامهم وحدة لم تعرف لها الدنيا شبيهاً؟ ومن جهلهم أمة علمت أمم الأرض؟ وأخرجهم من عزلتهم حتى فتحوا بسيفـه الدنيا وهدوا بهديـه العالم، ورفعوا بيده رايتهـم على كل أرض وتحت كل نجم؟

من الذي أقام حضارة دمشق، وبغداد، وقرطبة، والقاهرة، والقيروان، وأصفهان، وبلخ، ودهلي، إلا محمد!؟

من الذي أخرج القادة الذين كانوا عباقرة الميادين، وأبطال الحروب إلا محمد؟

من نشّأ العلماء الذين كانوا نبراس الدنيا، وهداة العقول، في كل علم معقول، أو منقول، إلا محمد!؟

من مد للعرب أسباب المجد، وأعطاهم مفاتيح الخلود إلا محمد!؟

أي مفخرة يفخر بها اليوم عربي، لم تكن من صنع محمد؟ احذفوا من تاريخ العرب كل شيء إسلامي، ثم انظروا ماذا يبقى!؟[١].

وهكذا يبين الطنطاوي في إيمان صادق أن الذي صنع العرب، وجعل لهم وجوداً، وكياناً إنما هو الإسلام واتباعهم لنبيه ﷺ فإن هم عادوا اليوم إليه عاد إليهم ما كان لأسلافهم من مجد وعزة. يقول:

«فإذا أردتم يا أيها العرب، أن تحتفلوا بمولد محمد حقاً، فعودوا إلى محمد يعد لكم عزكم، ويرجع مجدكم وتسودوا الدنيا مرة أخرى»[٢].

---

(١) مقالات في كلمات، ١/ ١٨٠، ١٨١.

(٢) مقالات في كلمات، ١/ ١٨٢.

وبذلك يتضح هدف الطنطاوي الإسلامي من مقاله الذي جعلنا نؤمن بضرورة وحدة الأمة الإسلامية، ونشعر بوجوب انتمائنا إلى الإسلام وحده، وصدورنا عن قيمه وتعاليمه، وتمسكنا بمنهجه القويم الذي يضمن لمن أخذ به العزة، والمجد، والسيادة.

المقال النقدي:

يبرز اتجاه الطنطاوي الإسلامي في نقده من خلال تصوره الصحيح لمعنى النقد؛ إذ كان يراه بناءً وتقويماً نحتاج إليه؛ ليقود خطانا إلى الطريق الصحيح.

وإن الناقد ليس عدواً ولا خصماً وإنما هو صديق وناصح، حين يقوم بدوره دون مجاملة أو إجحاف، وحين يدرك غايته، ويسعى إلى هدفه في حيدة وإنصاف.

ففي مقالته «في النقد»[١] نرى الطنطاوي يعزو سبب اختناق النقد وموته، إلى ابتعاد النقاد به عن غايته، ومثله العليا، مما جعلهم يخلطون بينه وبين السب والشتم، وإلى تحاشي الأدباء له، وغضبهم منه، واعتبارهم النقاد خصوماً لهم؛ ليعلن لنا بعد ذلك عن منهجه النقدي القويم. فيقول:

«من أجل ذلك مات النقد في بلادنا، وجهله الناس ولم يبق من يفرق بينه وبين السب والشتم، ويعلم أن الذي ينقد ليس عدوا ليسب ويشتم؟

(١) فكر ومباحث، ص١٧٤.

ولا خصماً يريد أن يهدم الأديب الذي ينقده، ولكن الذي ينقد أديب له ميزان حساس وصنجات موزونة، وعنده مثل أعلى فهو يقيس عليه القطعة التي ينقدها، ويبين مقياسها ويعطيها ما تستحق من التقدير.

هذا هو النقد الذي سأكتبه وسأجتهد أن أدنو به من قواعد النقد الأدبي، وسأفتح صدري لكل جواب يأتيني أو اعتراض يرد علي، وسأزنه بميزان الحق، ثم أحكم به لي أو علي..»[١].

وكان الطنطاوي ليقظة حسه، وغيرته يهاجم كل ما يفسد الذوق، أو ينال من الخلق والدين.

يقول أستاذنا الدكتور/ محمد رجب البيومي عنه: «وكنت آخذ عليه شدة هجومه على مخالفيه، وأعد ذلك تسرعاً لا موجب له، ولكن مرور الزمن بعجائبه المدهشة جعلني أستسيغ هذا الهجوم في بعض مناحيه؛ إذ أجد نفسي أحياناً أمام أناس يتنكرون لأشرف مبادئ الإسلام، ويعدونها تقهقراً للوراء جرياً وراء أهواء جامحة مريضة، وصاحب الأهواء المغرضة لا يعنيه دليل منطقي أو يفحمه برهان عقلي، بل يسدر في غلوائه متبجحاً متطاولاً، ولا بد لهؤلاء من غضبة مضرية يقوم بها كاتب متوهج الأحاسيس من أمثال علي الطنطاوي، وأبي الحسن الندوي، ومحمد الغزالي ممن رزقوا مع قوة الإيمان، وصلابة اليقين حرارة الأسلوب وقوة الدليل...»[٢].

---

(١) من مقالة «في النقد»، فكر ومباحث، ص١٤٨، ١٤٩.

(٢) «الشيخ علي الطنطاوي»، د/ محمد رجب البيومي. مجلة المنهل. ص٩٠، عدد ٥٦١، مجلد ٦٥، رجب ١٤٢٠هـ/ أكتوبر ونوفمبر ١٩٩٩م.

وهـذه حقيقة، إلا أنه يؤخذ عليه في هـذا.. اندفاعه الشديد الذي حملـه ـ أحيانـا ـ على المبالغة فـي المنقود، والكلام عنـه بما قد يغري بـه...، فـكان نقده لـه كالدعـوة إليه، والإعـلان عنه، كما فـي مقالته «نـداء إلى أدبـاء مصر»[١]، و«نحن المذنبـون»[٢]. وفي مقالته «عدوان علـى مصر»[٣] التي يتعرض فيها للنقـد، والتحذير من (فيلم) يعرض فـي مصر يحمل من سـوء الغاية، وخبث الوسيلة مـا ينال من الأخلاق والآداب، والتعليم في مصر. يقول:

«يعرضـ في مصر الآن فيلم اسمه «لبناني في الجامعة» تظهر فيه الجامعـة أولاً ببنائهـا وقبتها حتى لا يبقى عند أحـد شك أنها الجامعة المصريـة... فتـرى في بركة الجامعـة الطلاب والطالبـات بالأجساد العارية، والعورات البادية، ثم تبصرهم يعمدون إلى طالبة لابسة ثيابها الكاملـة، فيحملونها ويلقونها فـي الماء، فإذا خرجـت كالقطة المبللة حفوا بها ضاحكين عابثين...»[٤].

ومثل هذا الوصف للمنكر وتعيين اسمه ومكانه قد يغري به ضعاف النفوس ممن كانوا يجهلونه قبل ذلك.

وقد أدرك الطنطـاوي خطورة هذا الأمر، ولذلك رأيناه ـ بعد ذلك

---

(١) صور وخواطر، ص١٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠٢.

(٣) هتاف المجد، ص٣٦.

(٤) عدوان على مصر، «هتاف المجد»، ص١٨٩.

في ذكرياته يحذرنا من المبالغة في نقد المنكر، إلى حد تعيين موضعه أو اسمه، حتى لا يكون في نقد المنكر إعلان عنه ودعاية له. فيقول:

«ومن طريف أخبار.. الوعاظ، أذكره ولو لم يكن هذا مكانه، أن أحد مشايخنا جاءه من يقول له: إن (منيرة المهدية) تغني وترقص في (العباسية)، فأعلن غضبه في درسه في «الأموي» وقال: كيف ترقص المرأة أمام الرجال وهي كاشفة جسدها مبدية مفاتنها!؟ أين الدين، وأين النخوة!؟

قالوا: نعوذ بالله، وكيف يكون هذا، وأين يا سيدنا، ومتى؟

قال: في العباسية في الليل بعد صلاة العشاء، وكان نصف المقاعد خالياً فامتلأت تلك المقاعد كلها! فلينتبه الواعظون، فكثيراً ما تكون المبالغة في وصف المنكر دعاية له»[1].

المقال الوصفي:

تظهر الإسلامية في وصف الطنطاوي من خلال توجهه الملتزم الذي ينأى به عن وصف المحرم، والإشادة بما يكره الشرع؛ متجهاً في وصفه إلى إبراز الجمال المباح، والجلال المتاح، الذي يلبسه أثواباً قشيبة ويعطيه من عواطفه، وأحاسيسه ما يجعله جديداً متلوناً بألوان

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ٣٦/١.

نفسه التواقة إلى البراعة والجمال، والقدرة والجلال في خلق الله وكونه العظيم؛ ليخرج بالإنسان من ماديته ومحدوديته إلى عالم فسيح من المعاني الجميلة، والمتعة النبيلة التي قال عنها:

«تمر على الإنسان ساعات، بل لحظات ينسى فيها هذا العالم المادي، وهذه الحياة القصيرة الناقصة، ويحس كأنه يعيش بنفسه حياة أكمل وأجمل، تخالط نفسه مشاعر لا عهد له بها، ولا يقدر على وصفها، وتغمر قلبه لذة لا يعرف أي شيء هي، فيشعر أنه انتقل إلى عالم سحري جني عجيب، كهذه اللحظات التي تمر علينا في غمرة التأمل النفسي، أو في هذه الموسيقى، أو في نشوة الحب، أو حين الاستغراق في العبادة والمناجاة...»[١].

فمن هذه المقالات التي نعيش معه فيها هذه اللحظات من الإحساس الجميل، مقالته التي يصف فيها دمشق، ويشيد بمعالمها، فيقول:

«فيا من في دمشق تتشقوا عبير الخلود من دمشق، فما تلقون إن فارقتموها مثلها، مثل ميزانها، وشاذروانها، وغوطتها، ووديها، والأنهار السبعة التي تمتد على السفحين في الربوة، كأنها عنقود اللؤلؤ في جيد الحسناء، والبساتين التي يضل فيها النظر سكرا من الفتون، وهذي المنارات، وهذه القباب، والمسجد الذي تكسرت على جدرانه أمواج القرون وهو قائم، وارتدت عنه العصور وهو شامخ يروي لأبناء الأرض تاريخ الأرض مذ كان معبداً وثنياً، إلى أن صار كنيسة نصرانية، إلى

(١) «إلى لبنان»، مع الناس، علي الطنطاوي، ص٢١٨.

أن غـداً جامعاً إسلامياً. وهذا الجبل الـذي يفتر أبداً عن مثل ابتسامة الأمل في وجوه المطالب على حين تعبس الجبال، لن تلقوا بعدها مدينة مثلهـا.. ثيابهـا زهر، ونسيمها عطـر، وحديثها شعـر، وجمالها سحر، ومياهها خمر حلال؛ لأنها جنة المستعجل...»[١].

فهـذه السلاسة في الوصـف، والبراعة في نقـل الأحاسيس تجعل الطبيعـة الساكنة الميتة حية متحركة تنطـق بالحكمة، والجمال؛ لتهز النفس، وتوقظ الحس.

والطنطـاوي في رحلاته الكثيـرة ينقل إلينا مشاهـده عبر وصفه الرائـع، بـل إنه يحملنـا معه إلى عالمـه الجميل، ويخرجنـا من دنيانا الضيقـة، وعالمنـا المحـدود إلى عالمـه الواسع الرحب؛ لنـرى صوراً عجيبة، ونشعر معه بأحاسيس جديدة.

مـن ذلـك وصفـه الرائع لثـورة نهر دجلـة، وتصويـره لمشاعره، وأحاسيسه تجاه هذا الحدث، يقول:

«تركت الدار وخرجت أسبح في هذا الخضم من الناس أدفع النساء، والشيـوخ والشبـاب لأصل إلى الشاطئ فأعمل عمـلاً، ولست أدري ماذا أعمل؟ ولست أحسن السباحة، ولست أعلم ما الفائدة من ذهابي..

ولم أفكر في شيء من ذلك؛ لأن الإنسان لا يفكر في ساعة الخطر، وإنما يعمل.

---

(١) «بردى والغوطة»، ذكريات علي الطنطاوي، ٢/٢٤١.

فلمـا وقفـت على الصدع هالنـي، وأرعبني أن النمـر قد أفلت من القفصـ، وخرج يعـدو مجنوناً مستطار اللب كاشـراً عن أنيابه يزمجر ويزأر، ويبرق ويرعد.

إن الماء يندفـع إلى العلاء بقوة الديناميت، ثم ينزل على الحقول فيمضي مكتسحاً كل شيء في طريقه.. يقتلع الأشجار الضخمة، ويقذف بها كأنما هي عيدان الكبريت، وينسف البيوت كأنما هي علب من الورق، ويتدفق من كل جهة، وقـد ابتلع صوته المدوي كل ضجة، وملأ الأسماع بترتيلة الموت المستمرة.

وكان لمنظره في ظلمة الليل صورة لا توصف.

وأقـدم الناس يسابقون الماء؛ ليقيموا فـي وجهه السدود؛ ليقيدوا هذا النمر الهائج بحمية منقطعة النظير، وحماسة نادرة المثال...

وأقدمـت أخوض هذه اللجة من الناسـ؛ لأصل إلى اللجة الطامية من الماء.

أمشي في ظلمتين: ظلمة هذا الحشد المزدحم، وظلمة الليل البهيم!.

أتعرض لرهبتين: رهبة الليل وسواده، والسيل واندفاعه.

أصغي إلى لحنين: لحن الروع على ألسنة الناس، ولحن الهول على لسان النهر.

ولم أخش شيئاً... إنها ساعة الخطر.

بوركت يا ساعة الخطر!.

أنت لحظة الإنسانية، أنت التي تورق فيك أغصان الحب، ويزدهر فيك الإخلاص، ويعود الناس فيك إخواناً متحابين، قد خرجوا من أطماعهم، ومات في نفوسهم الحسد، والبغضاء، وعاش فيها الحب، والتضحية، والإخلاص، والوئام»[١].

وهكذا ينقل إلينا الطنطاوي مشاعر الخوف، والرعب من ذلك النهر الثائر الذي جسده في صورة نمر هائج أفلت من قفصه، وخرج يعدو مجنوناً كاشراً عن أنيابه يزمجر، ويزأر، ويبرق، ويرعد. ثم أراد أن يرينا قوته، فتراءت لنا بقوة الديناميت، ورأينا اندفاعه الشديد الذي يكتسح كل شيء، فيقتلع الأشجار ويقذف بها كعيدان الكبريت، وينسف البيوت وكأنما هي علب الورق؛ ثم يسمعنا دوي صوته وقوة ضجيجه التي ابتلعت كل ضجة، وكأنما هو صوت الموت يملأ النفوس، ويهدد الأحياء.

وجسد لنا حركة الناس، وسرعتهم الشديدة، وهم يتسابقون في ملاحقته بإقامة السدود في وجهه، وتضييق الخناق عليه؛ ليتمكنوا من تقييده.

ولا يترك الطنطاوي تلك الصورة المهولة دون أن يلفتنا إلى ماتوحيه في نفسه من معان مشرقة، استلهمها من حال الناس في ساعة الخطر «إنها ساعة الخطر!». التي ترى فيها مشاعر الإنسانية،

(١) «ثورة دجلة»، بغداد مشاهدات وذكريات، ص٨٨، ٨٩.

وروح التعاون، والمودة، ونبـذ الخصومات، والتعالي على أهواء الذات؛ لذلك يدعو لساعة الخطر، ليس حباً فيها، ولا طلباً لها، ولكن لما تولّده في نفوس الناس مـن تعاون ومودة، وتحققه من سمو وإخلاص، وكأنما يقول: هـل نحن في حاجة إلى الشعور ـ دائماً ـ بالخطر حتى تستمر هذه المشاعر وتبقى فينا هذه الأخلاق !؟

المقال الفكري:

يظهـر اتجـاه الطنطـاوي الإسلامي فـي فكره من خـلال اتزانه، وارتباطـه بوسطية الإسلام، واعتداله؛ لذلك لم ينحرف تحت مؤثرات الفكـر المختلفـة، والمذاهب المتباينة التـي تنحو بأصحابهـا إما إلى التساهل والميوعة، أو التهجم والتعصب والجمود. بل رأيناه في مقالاته ذا عقل قوي، وفكر سبّاق متوثب، مزوّد بثقافات مختلفة، واطلاع واسع سخره في خدمة الدين، وقضايا أمته في استقامة وإبداع.

ومما لا شك فيـه أن استمـداد الطنطـاوي لأفكاره مـن الإسلام بمصـدره الأصيل الثابـت، ومنهجه القويـم الحاسم، قد منـح أفكاره القـوة، والأصالة، والوضوح؛ بحيـث نراها ترجّ النفـس، وتتسلّل إليها؛ لتستقرّ في الأعماق، فلا تجد منفذاً للطعن، ولا مكاناً للتردد والشك.

ومن أدلة ذلك رؤيته للحضارة الغربية وموقفه منها؛ حيث يقول:

«وفـي إبان يقظتنـا وجدنا شيئاً لا عهد لنا بـه، فوقف فريقان منا موقفين غريبين: فريق أخذ بكل ما جاءت به هذه الحضارة، أخذ تقليد

بلا فهم ولا تمييز، وهذا خطأ...! وفريق رفض كل ما جاءت به بلا فهم ولا تمييز، وهذا خطأ!

والصواب أن نأخذ ما لا يخالف الثابت في ديننا، ولا يناقض الصحيح من سلائقنا وعاداتنا ما دام فيه النفع لنا، ولماذا نرفض نعم الحضارة!؟

إن أفقر فقير فينا يعيش أحسن من عيشة (عبدالملك بن مروان) و(هارون الرشيد).

عبدالملك كانت له ضرس منخورة، وكان به بخر من ذلك - أي إن رائحة فمه كانت قبيحة - ولم يجد طبيباً يحشوها له!، وأفقر فقير يجد الطبيب الذي يحشو الضرس، ويلبسها.

و(أبو جعفر المنصور) كان يشكو من أمعائه، ويتألم منها، فلا يجد حبة «أنتروفيوفورم» أو حبة «نوفالجين»، وأفقر فقير فينا يجدها فيسكن ألمه، وتتطهر من الجراثيم أمعاؤه.

و(هارون الرشيد) كان يسافر على الإبل وعلى الدواب، ويقطع الطريق من بغداد إلى مكة في شهرين، وأي واحد فينا يستطيع أن يركب الطائرة، ويقطع هذا الطريق في ساعتين!.

فمن الذي يقول: إن علينا أن نرفض نعم هذه الحضارة!؟ من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق!؟ لا، ولكن الذي نقوله:

obeikandl.com

إن علينا أن نرفض رفضاً باتاً ما يفسد عقائدنا ويوقعنا في المحرمات، ولو عدّه الناس كلهم من أركان الحضارة ومن لوازم الحياة»[١].

والطنطاوي في مقاله الفكري متوجّه بتوجّه إسلامي قوي، يطمح من خلاله إلى إصلاح خلل المجتمع، وتحفيز رجاله نحو علم ما يفيد. كمقالاته التي تضمّنت دعوته إلى تسهيل النحو بتخليصه من الخلافات، وتنقيته من الحشو الذي صرف الكثيرين عنه، ودعوته إلى تأليف كتاب عن الإسلام يعرضه عرضاً سهلاً شاملاً موجزاً، ودعوته إلى إصلاح المناهج، واختصار مراحل التعليم ودعوته إلى تطوير الامتحانات، والاستفادة بطاقات الشباب[٢]، إلى غير ذلك من الاقتراحات، والأفكار التي وضّحها، وأقام الحجة عليها، وعلى أهميتها، مما يجعلها جديرة بالتطبيق، واهتمام المسؤولين.

المقال العاطفي:

يلاحظ القارئ لمقالات الطنطاوي أنه لم يستنكف عن تناول عاطفة الحب، وغريزة الجنس، وهو الأديب الملتزم، والقاضي الفاضل؛ لأنه كان يلتزم الصدق، ويتجنب مواطن الإثارة، ويحاول أن يسمو بتلك العاطفة، وهذه المشاعر إلى الغاية الصحيحة التي رسمها الإسلام لها، وذلك انطلاقاً من أن الأديب الإسلامي بمنهجه القويم الشامل

(١) «نحن والحضارة الحديثة» مقالات في كلمات، ٢/٢٣٧، ٢٣٨.

(٢) انظر «آفة اللغة هذا النحو» فكر ومباحث، ص١٣، «كتاب الدين الإسلامي» فصول إسلامية، ص١٤٢، ٢٦١، وذكريات علي الطنطاوي ٨/ ٢٤٣، و«الطلاب والعطلة الصيفية» مع الناس، ص١٧٩.

لا يضيــق بمعالجــة قضية، ولا تناول مشكلة مهمــا كانت. لذا يتكلم عن الحب فيقول:

«ومــن حــرّم الــكلام في الحــب!؟ والله الــذي أمال الزهــرة على الزهــرة حتى تكون الثمــرة، وعطف الحمامة علــى الحمامة حتى تنشأ البيضــة، وأدنى الجبل مــن الجبل حتى يولد الــوادي، ولوى الأرض في مسراها على الشمس حتى يتعاقب الليل والنهار.. هو الذي ربط بالحب القلب بالقلب حتى يأتي الولد!.

ولولا الحب ما التفّ الغصن على الغصن في الغابة النائية، ولا عطف الظبي على الظبية في الكناس البعيد، ولا حنا الجبل على الرابية الوادعة، ولا أمــدّ الينبوع الجدول الساعي نحو البحــر!. ولولا الحب ما بكى الغمام لجدب الأرض، ولا ضحكت الأرض بزهر الربيع، ولا كانت الحياة.

مــا في الحب شيء، ولا على المحبيــن سبيل، إنما السبيل على من ينسى في الحب دينــه، أو يضيع خلقه، أو يهدم رجولته، أو يشتري بلذّة لحظة في الدنيا عذاب ألف سنة في جهنم...»[١].

فالطنطــاوي هنا يشيــد بجمال الحب، ويبرز روعتــه، وعطاءه في مظاهر الكون؛ ليبين سبيل السعادة به حين يسير في طريقه الصحيح، ويصــل إلى غايته المرسومة «بالزواج»؛ وليحذر من الضلال به، والذي يحول الحياة إلى شقاء، وجحيم «بالسفاح».

---

(١) «في الحب»، صور وخواطر. علي الطنطاوي، ص٢٠٩.

وعلى ذلك فرؤية الطنطاوي «لعلاقة الرجل بالمرأة» رؤية إسلامية واضحة في تناوله لموضوعاته تلك؛ إذ لم يخرج بها عن الإطار الذي رسمه لها الإسلام بضوابطه التي تستهدف صيانة المجتمع، وسعادة أفراده برقي أخلاقه.

المقال التأبيني:

يبرز توجه الطنطاوي الإسلامي في تأبينه من خلال:

١. صدقه، وأمانته. فهو لا يموّه على سامعيه، ولا يزيّف عليهم، ولا يضيف إلى فقيده ما لم يكن فيه، بل يلتزم الصدق، وينتهج الحق.

٢. تركيزه على الجانب الأخلاقي والسلوكي للفقيد. والذي يحمل المتلقي على الإعجاب، ويدفعه إلى الاقتداء به.

٣. في كونه لا يمنح التأبين لكل أحد بل في اقتصاره على أناس قلائل اشترك في حبهم والتفجع بفقدهم الكثيرون؛ لما قاموا به من أعمال بارزة، وجهود مثمرة.

٤. ويبدو هذا التوجّه من خلال صدق عاطفته، وصدقه مع نفسه، والذي يظهر واضحاً من خلال ألفاظه، وصوره، ومعانيه. فألفاظه في ذلك تعكس الحزن، والأسى، وصوره تعبّر عن اللوعة والألم المعتلجين في صدره، ومعانيه متلوّنة بألوان نفسه في أساه على الفقيد وحبه له، وتقديره لجهوده، ومآثره[١].

---

(١) «بغداد في يوم غازي، بغداد مشاهدات وذكريات»، ص١٠٣، و«عرس الشهداء». علي الطنطاوي، طبعة دار المنار الحديثة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢م.

ومن هنا كان تأبينه «للملك غازي»[١]، ليس عن مصلحة، أوغرض شخصي محدود، وإنما إغراءً لغيره من الملوك بالسير على نهجه. فقد «صنع غازي قبل موته ما أدخل محبته على كل قلب، وجعله صديقاً لكل عربي»[٢].

ومن هنا أيضا نراه يرفع الوهم الذي قد يقع فيه بعض القراء بعد قراءتهم لما رثى به هذا الملك آنذاك بقوله: «قد يظن بعض القراء الآن أني كنت من أشياع غازي، أو كانت لي به صلة! ولا، والله ما كان لي به أو بغيره اتصال، وما رثيته هذا الرثاء إلا أنه صنع قبل أن يموت ما جعله صديق كل محب للعرب، وكل عدو للإنكليز»[٣].

ونراه كذلك في مقالته «عرس الشهداء» التي يؤبن فيها شهداء الإخوان، قوي الشعور والانفعال، صادق العاطفة التي انتقلت من خلالها إلينا أحاسيسه، وانفعالاته، وأفكاره فلوّنت نفوسنا بلون نفسه، وأشعرتنا بفظاعة وقع تلك المأساة، حتى إن القارئ لهذه المقالة لا يشك أن الطنطاوي قطب من أقطاب الإخوان، ولكنه يعجب حين يذكر الطنطاوي أنه لم ينتم إلى حزب، ولم ينضم إلى جماعة طول حياته»[٤].

---

(١) غازي بن فيصل بن الحسين بن علي الهاشمي ١٣٣٠ - ١٣٥٨ هـ/ ١٩١٢ – ١٩٣٩م، ملك العراق وابن ملكها وأبو ملكها الأخير. (معجم الأعلام، ص٥٧٥).

(٢) راجع هامش ص١٠٤، من مقالة بغداد في يوم غازي - بغداد ذكريات و مشاهدات.

(٣) هامش ص١٠٩، «بغداد ذكريات ومشاهدات» علي الطنطاوي.

(٤) ذكريات علي الطنطاوي، ٨/٨٩، ٩٠.

ولكنــه صدق الرجل مع نفسه، ومنهجه الذي التزمه في نشر الحق والإعلان عنه، والثورة على الظلم، والنيل منه.

المقال الإذاعي:

فــي المقــال الإذاعي يبــدو الطنطــاوي: إسلامي الوجهــة، عميق الرؤية، قريب الفكرة، في موضوعاته، وأفكاره.

ففــي مقاله عن رمضان يعرضه في صورتين: صورته قديماً؛ حيث جمالــه، وبهاؤه، وأثره في تربية النفوس، وتنقيــة القلوب من المعاصي والذنوب، وتلك هي صورته المثلى التي كان يراها في طفولته.

وصورتــه الحاليــة التي عكّــر صفوها، وشوّه جمالها مــا يراه اليوم مــن سلوكيات مشينــة، وأخلاق فاسدة يرجو نبذهــا، ويدعو إلى تركها وبغضها. يقول:

«هذا الحديث عن رمضان، وفي رمضان النور والعطر، وفي رمضان الخيــر والطهر، وفي رمضان الذكريات الكثيرة: ففيه نزل الذكر، وفيه ليلة القدر، وكان فيه نصر بدر، وفي آخره عيد الفطر.

ورمضــان نور على المــآذن، ونور في القلــوب، ورمضان صوم عن الطعام، وصوم عن الحرام.

إن كانت الحياة تنازعاً على الحياة فهذا الشهر إدراك لسر الحياة، وإن كان العمر كله للجسم فهذا الشهر للروح، وإن كانت الدنيا للتناحر والخصام، فهذا الشهر للحب والوئام.

هـذا هو رمضان الـذي أبصرت وجهه من كـوة الطفولة فأحببته، ورأيـت أثـره الخيّر في كل مكان فـي دمشق، فأكبرته؛ ثم لـم أعد أراه أبداً، فعلمت أني قد افتقدته وأضعته»[١].

وبعـد ذلـك ينقلنا إلى صورتـه الجديدة؛ لتظهـر المفارقة التي لا ترضي مسلماً ملتزماً محبا لدينه، والتي يهدف من خلالها إلى التوجيه والنقد. يقول:

«أمـا رمضان الجديد فلا تعرفه هـذه الشوارع الجديدة، والأحياء الحديثـة، ولـم يعـرف بعـد الطريق إليهـا، ودمشـق القديمـة لم يعد يستطيـع أن يسيطر عليها، فالمساجد مملوءة بالنائمين، والمتحدثين، والمدرسين الجاهلين، والأسواق مفتحة المطاعم مملوءة بالمفطرين، والصائمـون تسـوء أخلاقهم في رمضـان من الجوع وشهـوة الدخان، والشياطين تصفّد في رمضان ولكن الفُسّاق ينطلقون عاملين فيه، كما كانوا يعملون قبل رمضان..»[٢].

والطنطاوي فيما أُثر عنه من أحاديث إذاعية وطنية، أو اجتماعية، أو سياسيـة... نـراه ملتزماً الوجهـة الإسلامية، لم ينحـرف عنها في موضوعاته، ولا في أفكاره.

ففـي حديثـه الوطنـي «لا تنسـوا فلسطين» نـراه ملتزمـاً بمساره الإسلامـي في لومه المسلميـن الذين استكانوا لمذابـح اليهود الآثمة،

(١) «رمضان» صور وخواطر، ص١٦٣.
(٢) السابق، ص١٦٣، ١٦٤.

وفـي بيانه لغلبة اليهود، وعدوانهم الذي يسانـده الكيد، والدسّ منهم، والخيانة ومـوالاة الأعداء من بعض المسلميـن، ومساعدة وحماية من الـدول الكبار لليهـود.. تلك هي الأسبـاب الحقيقية لضيـاع فلسطين، وغلبة اليهود، التي أعلنها دون مواربة أو وجل.

كذلـك كان إسلاميـا واضحاً فـي استلهامه أسبـاب النصر التي كفلهـا الإسلام وقدّمهـا لأتباعه، إن كانت هنـاك آذان تسمع، أو قلوب تعقل، يقول:

«... يجب أن يفهم كل عربي يسمع حديثي، أن الذين غلبونا ليسوا اليهود، بل الإنكليز والأمريكان، وما غلبونا في ساحة المعركة المكشوفة بل بالدسّ، والكيد..، هذه حقيقة يجب أن يفهمها كل رجل، وكل امرأة، وكل طفـل، وأن يعلّمهـا المعلمـون تلاميذهـم في دروس التاريخ، وأن يعلموهم معها أننا نستطيع أن نطرد اليهود في كل وقت، إذا تركتنا هذه الدول نعمل، إذا تركونا نستعمل حقنا المشروع في الدفاع عن أنفسنا.

إننـا نستطيـع إذا صدقنا العزم أن نطردهم على الرغم من هؤلاء الكبـار، بل نستطيع أن نحارب الـدول الكبار نفسها، وهذا دليلي قائماً، هـذا الدليـل المشهور فـي بور سعيـد، أمـا ردّت هذه البلـدة الواحدة الصغيرة إنكلترا وفرنسا تنبح معهما كلاب الأرض اليهود! أتعرفون لم ظفرت بور سعيد؟

لأنهـا طبقت الحكم الشرعي الـذي كان معطلاً تطبيقه من قرون، فهل تعرفون هذا الحكم؟

هـو أنـه إذا احتـل العـدو بلداً مـن بـلاد المسلمين صـار القتال فرض عين كفرض الصلاة على الرجـل، والمرأة، والكبير، والصغير، فالمقاومـة الشعبية التي تحسبون أنها جديـدة، هي حكم الإسلام من نحو أربعة عشر قرناً، أما قلت: إن الإسلام فيه كل شيء!؟»[١].

كذلـك نرى الطنطاوي في حديثه الإذاعي الذي أيد فيه الانفصال بين مصر وسوريا، مستجيباً لتوجهه الإسلامي الذي بين فيه أن موقفه هـذا لم يكن كرهاً للوحدة، وإنما بسبب شدة المعاناة الناتجة عن سوء الحكم.

وكذلـك نرى الطنطاوي في حديثـه الإذاعي «اعرف نفسك» الذي يحـاول من خلاله أن يأخـذ المستمع إلى رحلـة استكشافية عبر نفسه الإنسانيـة؛ ليتعرف علـى حقيقتها، ويتنبه إلى قدرتهـا، وما أودعه الله فيها من أسرار. يقول:

«... وتكـون وانيـاً واهي الجسم، لا تستطيع حـراكاً، فإذا حاق بك خطـر أو هبط عليك فرح، وثبت كأن قد نشطت من عقال، وعدوت عدو الغزال، فأين كانت هذه القوة كامنة فيك؟ هل خطر على بالك أن تبحث عـن هذه القوة فتحسن استغلالها؟ هل تساءلـت مرة عندما تغضب أو تفرح، فتفعل الأفاعيل كيف استطعت أن تفعلها؟»[٢].

---

(١) «لا تنسوا فلسطين» هتاف المجد، ص٥٩، ٦٠.

(٢) «اعرف نفسك»، صور وخواطر، ص٥٠.

وهكـذا يسير الطنطاوي في حديثه، في حوار مع النفس؛ ليؤكد في النهاية أن التعرف على النفس وسيلة مهمة للتعرف على خالقها، وقدرته فيها، والتعرف على حقيقة الحياة، و ما ينبغي للسير فيها، يقول:

«فيـا أخـي.. اعـرف نفسـك، واخل بهـا وغصـ على أسرارها، وتساءل أبداً: ما النفس؟ وما العقل؟، وما الحياة؟ وما العمر؟ وإلى أين المسير!؟

ولا تنس أن من عرف نفسه عرف ربه، وعرف الحياة، وعرف اللذة الحق التي لا تعدلها لذة، وأن أكبر عقاب عاقب به الله من نسوا الله أنه أنساهم أنفسهم!»[١].

وهـو كذلك في حديثه الإذاعـي «في الترام» الذي يعرض فيه لنقد سلوكيـات سيئة، وأخلاقيات منحرفـة، وأخرى حسنة يستوحي منها ما يفيـد؛ منبهـاً بذلك الموضوع إلـى ما ينبغي أن يكـون عليه المسلم من يقظـة تدعوه إلـى التقاط مـا ينفعه، ونبذ مـا يضره ممـا يسمع ويرى يقول:

«إن الترام يكشف أخلاق الناس، وطبائع البلدان، وهو مدرسة يرى المرء فيها القبيح من جاره فيتركه، والحسن فيتعلمه، ويتمتع الملاحظ المدقق بعد هذا كله بفصول (الفلم) البشري المعروض عليه»[٢].

---

(١) السابق، ص٥٠.

(٢) في الترام «صور وخواطر»، ص١٠٢.

«هـذا رجل يأتيك من خلفك، وأنت واقف في زاوية الترام يرجوك أن تفسـح له ليمر، فإذا انزحـت له أخذ مكانك، وتركك حائراً لا تدري أين تقف...!»[١].

وهـو يسيـر علـى نفس الـدرب في حديثـه الإذاعي «بيـن البهائم والوحوش» والـذي نـراه فيـه يصطحبنـا معه فـي رحلة إلـى حديقة الحيوانـات؛ لنشاهـد فيهـا طبائع البشـر، وعجائب النفوس مع صور الحيوانات. يقول:

«ووقفـت على الفيل وقـد تواضع حتى غر الناس منـه لينه، فنسوا شدتـه، وهان على أحدهـم حتى أركبه صبيته، وصرّفـه الفيّال واتخذه لعبته، كما يطيع الرجل امرأته فيضيّع رجولته، ويفقد منزلته!»[٢].

«ووقفـت على القردة وهي تعيش العمر كلـه مجلس لهو ولعب تقلد كمـا يقلد «قردة البشـر» ولكنها تقلد فيما ينفعها وهـؤلاء يقلدون فيما يؤذيهم!. وعلى الببغاء وهي تردد ما يقال بلا فهم كهؤلاء الذين يعيدون علينـا كل مـا يقول الغربيـون!. وعلى الحيـات وهن ناعمـات الملمس، ناقعات السـم، كالصديق المخادع يخالك ليختالك، ويسقيك من قوله العسل وفيه من قبح مقصده الحنظل...»[٣].

وعلى ذلك فالطنطاوي إسلامي في أفكاره وموضوعاته متزن فيها

---

(١) السابق، ص١٠٣.

(٢) بين البهائم والوحوش «صور وخواطر، ص١٠٣.

(٣) السابق، ص١١٣.

باتـزان الإسلام وقيمه، مما برأها مـن الخلط والانحراف، والغموض، والتشويه، فجاءت فـي ترابط، واتساق، وقوة تؤثر في المتلقي، وتقنعه؛ إذ يجد فيها حديقة عبقة الأزهار، وارفة الظلال في تناسق عجيب بين الألفـاظ، والأفـكار، و المعارف القديمة والعلـوم الحديثة، وأدلة النقل والعقل، ممـا أضفى عليها الحيوية، والجـدة، والصدق، والعمق، حيث كان الطنطـاوي حريصاً أن يتوجه دائماً إلـى العقل، ويستطيع بمقدرة فائقـة أن يتخذ مـن الذاكرة مطيـة للعقل، ومـن الماضـي وسيلة إلى الحاضر، ومن التاريخ سبيلاً إلى الحقيقة الأزلية الراسخة[١].

وقـد كان في موضوعاته ينتقي من كل علـم ما يخدم فكرته، ومن كل موقـف مـا يؤيـد وجهته، ومـن هنا يلمح فـي مقالاتـه مصطلحات علمية، وعبـر تاريخية، وعصرية، ومعارف علميـة، وفلسفية، ونفسية، واجتماعية، وأدبية، ولغوية، وقانونية، وشرعية.

حتى «إن القارئ حين يقرأ ما كتبه الشيخ الراحل وهو ابن العشرين أو الثلاثيـن أو الأربعيـن؛ ليدهش كيف يتسنى لهـذا الأديب الشاب أن يكتب بهذا المستوى الراقي، وكيف جمع في الموضوع الواحد أو القصة الواحـدة أو المقدمة الواحدة للكتاب كل هـذه العلوم الغزيرة التي تدل علـى سعة علمـه وكثرة اطلاعه، حتى يخيل إليـه أن الشيخ الطنطاوي ـ رحمه الله ـ لم يترك كتاباً من الكتب العربية القديمة والحديثة إلا قرأه واستوعـب دقائقه وتفاصيلـه، ثم تفاعل مع هذه الدقائـق والتفاصيل،

(١) الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، د/ أحمد بسام ساعي، ص ١٤٨، ١٤٩

واستخـرج منها أجمل الدروس والعبر وصاغها هذه الصياغة التي تدل علـى أنه كالنحلـة التي تأخذ مـن كل زهرة رحيقها ثـم تخرجه عسلاً مختلفاً ألوانه وطعومه فيه شفاء للناس»[١].

ولعل أهم ما يميز أفكار الطنطاوي وموضوعاته وما أكسبها الحيوية والتأثير، والطرافـة والإقناع؛ مسها لحياة الناس، والتصاقها بواقعهم مباشـرة بإيجابياتـه وسلبياته، مـع وضوح الاتجـاه الإصلاحي المبني علـى أساس الدين الصحيـح، باعتباره أقوى محـرك للإصلاح ودافع إليـه، ومن هنا كان الإصلاح عن طريق الدين هدف ملازم وواضح في موضوعـات الطنطاوي وأفكاره، حتى تلك التـي كتبها في محور النفس كانـت تصب في هذا الاتجاه؛ لأن إصلاح المجتمع يبدأ بإصلاح الفرد، وإصلاح الفرد يبدأ بإصلاح نفسه.

وكذلـك كان فـي تناولـه التاريـخ، واستدعائـه الماضـي، هادفاً إلـى إصـلاح الحياة عن طريق إثـارة المفارقة الشديـدة بين الماضي والحاضـر؛ لدحض سلوكيـات منحرفة، والتنفير منهـا، ونقد توجهات شاذة، والتحذير منهـا[٢]، باستثارته العاطفة، ومخاطبته العقل بأقوى وسائل الإقناع والتأثير، من ضرب الأمثال، وإيراد الحجج، والبراهين،

---

(١) «الشيـخ الطنطاوي»، د/محمـد عبده يماني، مجلة الصحوة الإسلاميـة، ص٢٦٩ مجلة فصلية يصدرها القسم العربي بالجامعة الإسلامية. دار العلوم حيدر آباد. الهند. السنة ١٣، العدد ٣٦ (محرم ١٤٢١ هـ/أبريل ٢٠٠٠م).

(٢) «الأدب الإسلامـي» الطنطاوي، صور وخواطر قراءة ثانية، شمس الدين درمش، ص١٠١، ١٠٢، العددان (٣٤-٣٥) ١٤٢٣ – ٢٠٠٢.

وسـرد القصص الاجتماعية، والواقعيـة، والتاريخية، وأسلوب الحوار، والاستجـواب، والتصويـر، والتشخيـص مستلهمـاً في ذلـك الأسلوب القرآني ومتأثراً بالأداء النبوي[١].

ولعـل أهـم من ذلك كله عاطفـة الطنطـاوي، وإحساسنا العميق بصدق وصحة ما يقول فيما يعالجه من موضوعات وأفكار.

(١) السابق، «الشيخ علي الطنطاوي مربياً إسلامياً»، أحمد حسن الخميسي، ص١١٧.

obeikandl.com